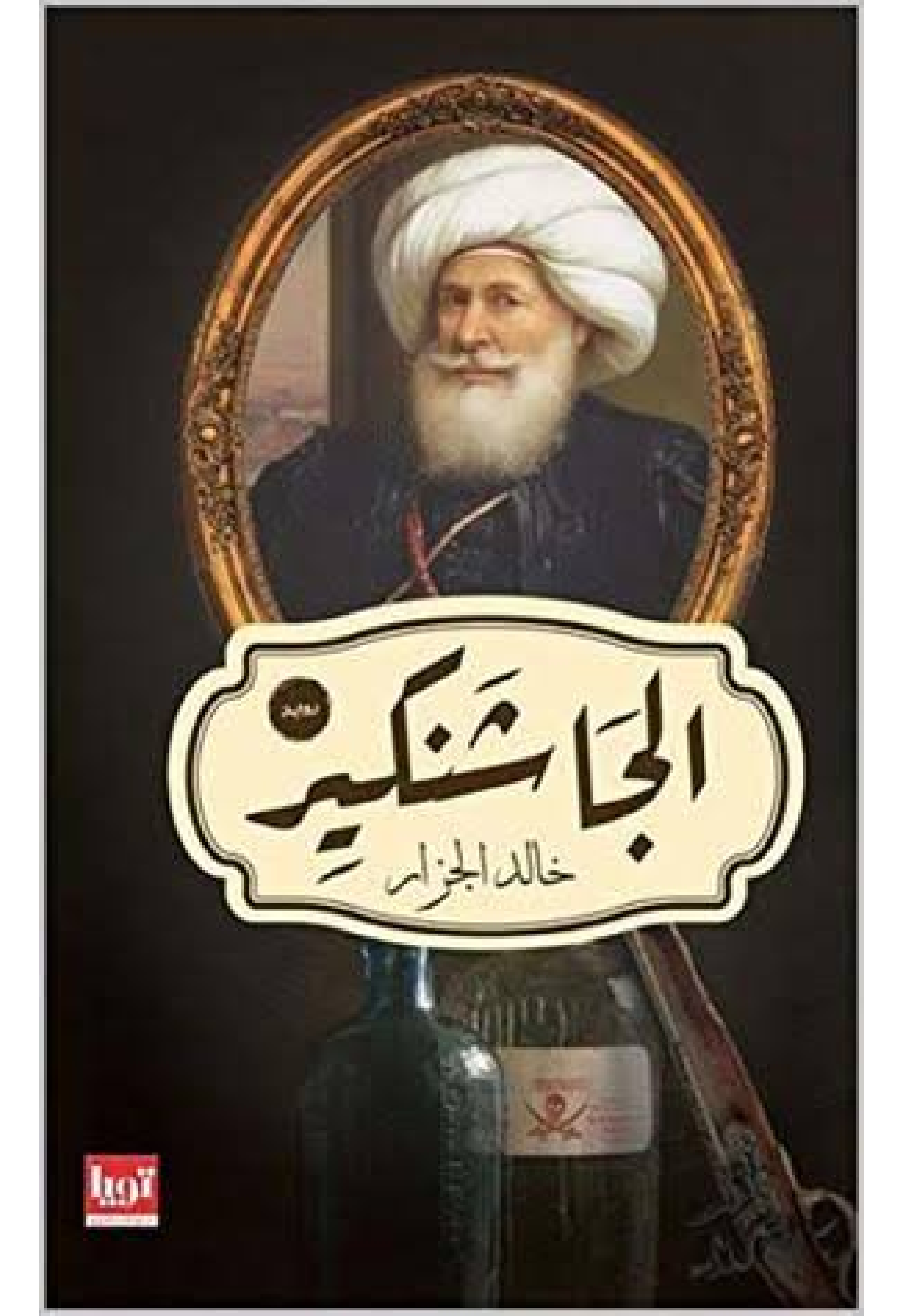

الجاشنكير
خالد الجزار
تويا

"وصلت لحكم مصر بالسيف ولن أتخلى عنها إلا بالسيف! أعرف الأتراك، هم للبيع وسأشتريهم".

من أقوال محمد علي

(1)

عاشقة الطرب

على الطبلية الخشبية المستديرة تحركت مخرطة الملوخية برتابة بين يدي «فاطمة»؛ تسحق الأوراق الخضراء تحتها دون رحمة، وتحوّلها إلي قطع صغيرة، تلتصق ببعضها في محاولة يائسة لمقاومة السلاح الحاد المستدير لتلك الآلة، تجمعها بنصل شبه دائري، تحكّه في القاعدة الخشبية، تشكّلها على هيئة مخروط صغير، يعاود السلاح الحديدي عمله مرة أخرى فارمًا الأوراق الخضراء، التي تبدو من وجهة نظرها، وبناءً على الخبرة التي تحاول اكتسابها من أمها، ما زالت تحتاج إلى تنعيم.

بدت «فاطمة» مستمتعة بعملها، وهي تردّد بعض الأغاني الشعبية، التي تتقنها جيدًا، بعد أن استمعَت إليها كثيرًا في أفراح الحيّ، تحبّ الغناء؛ ويُطرَبُ كلّ من يسمعها، تجيد الرقص والنقر

على الدُّف، توبّخها أمها إذا ما رأتها ترقص أو تنقُر، ولو على غطاء وعائهم النحاسي؛ خوفًا أن تحسدها إحدى الجارات إذا ما رأينها، تحركت المخرطة على الطبلية مع نغمات الدور، التي تصدح بها، ضايقها الدخان المتصاعد من الكانون بجوارها، خانقًا اللحن، الذي تردده، في خلْقِها.

على الأرض، جلست «نفيسة»؛ أمّها أمام بعض الحجارة؛ رصتها بطريقة معلومة، وفوقها وضعت وعاءً نحاسيًا متواضعًا، به أرنب لا يقل تواضعًا عن الوعاء، واضعة بعض القشّ اليابس تحته؛ بعد أن أضرمت النار فيه، منتظرة أن ينضج الأرنب الصغير؛ حصل عليه ابنها «أحمد» مقابل نقل بعض الزنابيل[1] من على الشواغر[2] ووضعها على الحمير، رفض مالك البضاعة منحه أجره نقدًا مقابل عمله هذا؛ ربما أقدم الرجل على هذا لأنّه لم يقم بالعمل كما يجب، أو ربما لأسباب أخرى، لم يفصح عنها التاجر؛ وأعطاه في المقابل أرنبَين؛ هرب منه أكبرهما في الميناء، حاول اللحاق به؛ ففشل في إعادته ورجع بهذا الذي تسعى الأم لطهيه.

اشتعل الحطب، وصفا هواء البيت من الدخان؛ الذي زاد السناج على العروق الخشبية المتهدّلة، التي تحمل سقف البيت؛ فزادته سوادًا، ما حدث وما يحدث أحيانًا لا يخلو من الفائدة، فالذباب هرب من البيت الصغير، الذي تعيش فيه «فاطمة» وأمّها وأخوها؛ جالب الأرنب، والأب الذي قد يحضر اليوم ويشاركهم طعام الغداء.

---

1 - أكياس كبيرة من الخيش توضع فيها البضائع.

2 - ما يوضع على ظهر الجمال لتحميل البضائع.

عادت لتكمل الدور الذي كانت تغنيه؛ والذي منعها الدخان من إكماله. اقتربت الأمّ منها وجلست بجوارها تستمتع بغنائها «العفو يا سيد الملاح» الذي تطرب له، وهي تتمايل مع نغماته، توقفت عاشقة الطرب عن الغناء، وعن خرط الملوخية بعد أن اطمأنت أنّها وصلت للنعومة المطلوبة، والتي دائمًا ما تصرُّ عليها الأمّ في يومٍ مميّزٍ مثل هذا، على الأقل بالنسبة لها، فـ فاطمة بنت الرابعة عشر ليست بصغيرة الآن، من المنتظر أن يتقدم لها صاحب نصيبها في أيّ وقتٍ، وعليها الاستعداد لذلك، هي تجيد الطهي، وتنظيف المنزل وترتيبه، كما تجيد الغناء والرقص، ستكون هدية ربّانية لزوج المستقبل؛ يسعد بها ويهنأ بلا شكّ.

في انتظار نضج الأرنب ليكون الحساء جاهزًا لعمل الملوخية؛ التقطت الأمّ رأس ثوم، وأخذت تقشّر بعض فصوصه، وأسرعت تدقها في الهاون الحجري، بعد أن أضافت القليل من الملح، والكثير من الكزبرة الجافة، لم تضيّع ابنتها الوقت؛ انشغلت في تنظيف غرفة نوم أمّها، والتي تشاركها النوم فيها، طالما الأب غائبًا في عمله، أخرجت المرتبة المحشوة بالقشّ الناعم إلى سطح البيت؛ مطهرة إياها بشمس مارس، كما تعوّدوا على ذلك بعد أوامر مشدّدة من الفرنسيين الذين تدخلوا في كلّ تفاصيل حياتهم، فشمس هذا الشهر قد تختفي في أيّة لحظة.

استلقت فاطمة على المرتبة لتنعم بدفء الشمس هي الأخرى، فانحناء ظهرها أثناء خرط الملوخية، وحمل تلك المرتبة الثقيلة جعل التعب يداهم جسدها الغض، فراحت في غفوة لم تطل، أيقظتْها أصوات المدافع؛ فهرعت هابطةً عن سطح المنزل مرعوبة؛ فـ في السنوات القليلة الماضية، وفي وجود المحتلّين دائمًا ما كان صوت القذائف نذير شؤم.

أسرعت فاطمة تبحث عن أمها في حجرتي البيت؛ لتحتمي في حضنها كما اعتادت كلما ضجّت القاهرة بطلقات القنبر، والرصاصات المندفعة من بنادق الفرنسيين بطريقة عشوائية، فلا تفسير لذلك إلا أنّ آلات الموت قرّرت أن تحصد عددًا كبيرًا من الأقارب والجيران والمعارف، وقد كان خالها واحدًا من الذين تمكنت رسل الموت من غرس رصاصاتها في صدره؛ بعد أن فشل في الاختباء خلف إحدى المتاريس، التي بنوها ليحتموا بها في ثوراتهم ضد المستعمرين الكفرة.

بكل ما أوتيت من هلعٍ صرخت تنادي أمّها؛ ولكن ما من مجيبٍ، تضاعف خوفها مع أصوات المفرقعات التي كادت تصمّ أذنيها، اختبأت خلف صندوق خشبي قديم يستخدمونه في وضع ملابسهم، لا مخبأ لها إلا حضن أمّها، التي اختفت، ولا تعلم ما حدث لها، أو ما سيحدث لها هي أيضًا .

كاد الهلع يعصف بالصغيرة، فوقْع الخطوات خارج الغرفة قد يكون لبعض المماليك أو الأتراك أو لمِلَلٍ أخرى من التي كثرت في مصر بعد انسحاب الفرنسيين منها، سيأخذونها سبيّة ويبيعونها في سوق الجواري، فجأة عادت البسمة إلى وجهها، خرجت زفرة قوية من صدرها؛ اطمأنّت بعد سماع صوت أمها وأخيها، ارتعشت أوصالها بعد أن كادت تتجمّد، وعادت للحياة مرة أخرى بعد أن غرس الضعف والخوف مخالبه في جسدها النضر وأكملت غفوتها خلف الصندوق.

أعادت الأمّ وضع الوعاء النحاسي على الكانون وأشعلَته مرة أخرى، دخل أحمد حجرة نومه التي يتشاركها مع أخته عندما يتواجد أبوه؛ غرفة ضيقة قليلة المتاع، صندوق خشبي متوسط في أحد أركانها لُف بعناية بقطعة من قماش الكتان المهترئ، يبدو أنّ له أهمية خاصة عند صاحب الغرفة، حصيرتان صغيرتان؛ إحداها مطوية فوق الصندوق لا تفرش إلا في وجود الأبّ أو وجود زائر، وهو ما يحدث نادرًا، وسادتان من ليف النخيل، واحدة على طرف الحصيرة المفروشة على الأرض، والأخرى فوق الحصيرة على الصندوق، وفي الركن المقابل للصندوق بيرق معلق على خشبة رشيقة ملفوف حولها عَلَمٌ أحمر كالح اللون؛ مزيَّنة أطرافه بشريط أصفر، التقطه وخرج مسرعًا من غرفته.

مَرَّ أمام أمّه التي أخرجت الأرنب بعد أن تأكدت من اكتمال نضجه في غطاء الوعاء، ووضعت الملوخية في الحساء وقلّبتها جيدًا، تذوقتْها بطرف الملعقة، شعرت بأنّ عليها أن تضيف القليل من الملح، نادت على فاطمة لتعطيها قرطاس الملح الموضوع على رف خشبي معلق بحبال في أحد عروق الغرفة، لم تجبها! أعادت النداء؛ ما من مجيب، نادت على ابنها وهو في عجلة من أمره، توقف وقبل أن ينظر نحوها سألته:

- ألم ترَ أختك؟

- لا.

- أليست في غرفتك؟

- لم أرها منذ أن دخلتُ معكِ المنزل، لقد تأخرتُ وعليَّ الإسراع.

- ألن تتناول غداءك؟

- لست جائعًا؛ فطرت توًا.

تركها واندفع مغادرًا، والحماسة كادت أن تنفجر من وجهه الأسمر النحيل، ابتسمت أمّه له، وقامت تبحث عن ابنتها، وجدتْها مكوّمة في حالة إعياءٍ شديدٍ خلف صندوق الملابس في غرفتهما، المسكينة لم تستطع أن تفرّق بين طلقات الاحتفال، وبين المدافع الفرنسية التي دكّت القاهرة أكثر من مرة، ورغم رحيلهم عن البلاد

منذ أربعة أعوام،إلاّ أنّ الصغيرة لم تستطع أن تنسى أنّها ذات مرة رأت الموت تحت أنقاض منزلهم عندما وجّهوا مدافعهم باتجاه القاهرة من فوق المقطم، ولولا تدخل العناية الإلهية؛ وتعامُد عِرقَين من الخشب فوقها، لكانت في عداد الموتى الآن، تلك الفتاة خضراء الساق تتعب من أيّ مجهود زائدٍ، لامت نفسها؛ لم يكن عليها أن تأمرها بحمل المرتبة والصعود بها إلى السطح، ليتها لم تطلب منها ذلك وقامت هي به، حاولت إيقاظها، لم تستجب الصغيرة لتوسلاتها، أطلقت الأم صرخة مدوّية ظنًا بأنّ ابنتها تحتضر، لم يسمعها أحد في ضجيج الاحتفال بتولّي الباشا الجديد ولاية مصر.

*****

(2)

الاحتفال

حمل أحمد بيرقه كفارس عائد مظفرًا من حروب طويلة، أسرع في طريقه نحو الأزبكية، ازدحمت الطرق - المسقوفة بالحصر -بالباعة، الذين يفترشون جوانب السكك الضيّقة بسلال الخضروات والفاكهة، الجميع في حالة من النشوة والتراضي، البائعون يسعون لبيع بضائعهم ولو دون مكسب؛ لعلّهم يتمكنون من حضور احتفال اللّيلة؛ النساء ببراقعهن السوداء، التي تغطي وجوههن، ولا تظهر إلا أعينهنّ الحوراء الواسعة والتي حباها الله بجاذبية خرافية، لم يكتفين بذلك؛ بل زدنها جمالاً وفتنة بخط من الكحل العريض، الذي أحاط بالأهداب ليحوّل تلك العيون لسلاح طائش يُردي كلّ من حاول النظر إليه، أسرعن في خطاهن بأجسامهن الممشوقة، ترتجّ أردافهن في جميع الاتجاهات، في إغراء مثير، مع تلك التجاعيد العشوائية حولهن؛ بعد تضييق الخناق عليها بشدّ الملاءات التي

تلتف حول خصورهن، عليهن أن ينتهين من أعمالهن المنزلية علّهن يكسبن رضا رجالهن، ويصطحبوهنّ إلى الاحتفال المنتظر.

تجمّع الخلق من كلّ حدبٍ وصوبٍ، وسط هذا الزخم رفع الرجال أعلامهم الملونة، ووقف أحمد وسطهم ببيرقه، تحركوا كـكتلة واحدة يلوّحون بأعلامهم، تسبقهم دقات طبولٍ من كلّ نوع، ساروا في شوارع أمّ الدنيا الرئيسة فرحين؛ معلنين تأييدهم لمشايخهم وزعمائهم حتى وصلوا وجهتهم.

ازدحمت الأزبكية بكلّ الفئات؛ من الرجال والنساء والعجائز والأطفال، ضجّ المكان بأصوات الغانيات، ارتفعت أصوات المغنيين والمنشدين بالأهازيج، انتشر الحواة في الأرجاء، تحلّق حولهم البعض مندهشين من أعمالهم السحرية، سلاسل حديدية طويلة رُبطت في أعناق القرود، التي تتقافز في خفة مع ضربات خفيفة على الدُف، وتؤدي حركات مضحكة؛ نوم العازب وعجين الفلاحة، الكلّ يعبّر عن سعادته بطريقته الخاصة، البائعون ينادون على بضائعهم بصوت جهوريّ، بائعو البوظة جلسوا بقرعات فخارية متجاورين، وتوافد عليهم راغبو الجذل بتغييب عقولهم، على جانب آخر.. جلس بعض الرجال يدخنون الحشيش وقد غابوا عن وعيهم، جلسوا يتأمّلون الدخان الأزرق المتصاعد من الجَوزة التي أمامهم، والبلاهة تملأ عيونهم المفتوحة، على قرع الطبول هزّت بعض الراقصات أجسادهن في ملابسهن اللامعة الضيقة وقد أبرزت مفاتنهن، وهناك

ليس ببعيد عنهن مجموعة أخرى من النساء تجمّعن حول بعضهن باحثات عن راغبي المتعة، المحظوظة منهن حصلت بالفعل على مبتغاها، وأخذت تبحث عن الطريقة المُثلى لتحقيق أكبر مكسب منه، طُلاّب معمّمين يبحثون في الخيام عن شيوخهم، اليوم رؤساؤهم أثبتوا لسلطان إسطنبول أنّهم هم من يتحكمون في مصير بلادهم وليس بابه العالي أو صدره الأعظم.

شَقَّ طريقه بصعوبة وسط الزحام، ورغم اختلاف الجمع وتنوّعه إلاّ أن الفخر، والفرحة - بما حقّقه لهم شيوخ الأزهر - ظاهرةٌ على قسماتهم، وطاغيةٌ على حديثهم، فهذا يُقسم بأغلظ الأيمان وهو يخرج الدخان الأزرق من أنفه في خطّين متوازيين بأنّ هناك صلة قرابة تجمعه بالشيخ «الشرقاوي»، وآخر يؤكد صلة النسب التي تجمعه بالسيد «عمر مكرم» بعد أن أفرغ قرعة البوظة في جوفه، وظهر أثر السُكر على عينيه، بجواره تربعت امرأة مفترشة الأرض وأمامها مَوْقِد الجمر تشوي كيزان الذرة، تعلن تخوفها من «محمد بك الألفي»؛ الذي لا بد أن يعود وينتقم من الجميع، ويستولى على العرش الذي عاش يحلم به.. أكّد على كلامها بائع الترمس، بعد أن ناول زبونًا أمامه قرطاسًا كنوع من أنواع المَزّة الرخيصة قائلاً:

- إنّ «الألفي بك» لن يترك الحكم بهذه السهولة، خاصةً بعد ما بذله من جهد في مقاومة الفرنساويين.

وصل أخيرًا عند مجموعة من الطلاب الأزهريين، الذين جلسوا بعيدًا عن أماكن اللهو فوق ربوة صخرية صغيرة، جلس بالقرب منهم يستمع لنقاشهم الهادئ عن توقعاتهم لما هو آت، أكثر المتفائلين بينهم شاب في أواخر عقده الثاني، كان واضحًا من لهجته أنه من أهل «مراكش» ، قال بأنّ الأمور قد استقرت في مُلك مصر المحروسة لمحمد علي باشا.. اعترض على رأي المراكشي طالب صعيدي يناهزه في العمر، قال بأنّ المماليك،وعلى رأسهم محمد بك الألفي المستقرّ في الصعيد ليس ببعيد عن الأحداث، وأنّه ما زال يملك من القوة ما يستطيع بها مقاومة الباشا كما قاوم الفرنساويين من قبل، انبرى شاب آخر تبيّن لأحمد من لهجته وملامحه؛ بأنّه من بلاد شرق آسيا، خرجت من فمه الكلمات ممطوطة، محاولاً أن يوضحها وهو يضغط على بعض الحروف، أنّ ما يقلقه ليس العثمانيون، ولا الأمراء المصريون ولا «محمد علي باشا» نفسه، فَشيوخهم، الذين أتوا به، قادرون الآن على خلعه وتعيين غيره، وأنّ ما يؤرقه حقًا هم أهل الفرنجة الكفار؛ لأنّهم لم ولن يتوقفوا عن محاولاتهم للسيطرة على مصر من بعد أن دفعوا دية أسير دار ابن لقمان في المنصورة؛ «لويس التاسع» وأنّهم يحلمون بامتلاكها، فمصر بالنسبة لهم هي درّة التاج التي يسعون جميعًا لاقتنائها بأيّ ثمن، ومهما كانت الخسائر التي قد يتكبدونها في سبيل ذلك. لم يتوقف النقاش بينهم، فنهضوا وأكملوه في طريق عودتهم وتركوه يجلس وحيدًا وبعيدًا عن الضجيج والغوغاء.

تذكر أحمد ذلك العالم الفرنسي مسيو « ڤانسان»، الذي عمل عنده، وقتما سمع اسم أسير المنصورة، حيث يحلو له أن يسمي ملكهم البطل لويس القديس، عمل خادمًا، وطبّاخًا لأحد علماء «بونابرته» لمدة عامين، تعلّم الفرنسية وأجادها، تدرب وتعلم الطهي الغربي، أجاده وتفوّق فيه؛ حتى راق طعامه سيّده، وأشاد به، وافتخر به أمام زملائه، وكثيرًا ما دعاهم لمشاركته طعامه، اعتبره البوابة الرسمية للمجتمع المصري؛ من خلاله تعرّف على الكثير من عادات وتقاليد ومعتقدات أهل مصر، لم يبخل عليه أبدًا مقابل سَنتَين من العمل معه، تمكّن من إعادة بناء البيت الذي تقيم فيه عائلته الآن، وتعلَم لغة قد يستفيد منها يومًا، وطُرقًا غريبة في الطبخ يستخدم في إعدادها الخمور أحيانًا، لم تَرْقَ أسرته عندما أعدّها لهم ذات يومٍ، بجانب صندوق مملوء بالأدوات العلمية تركها العالم له كذكرى، احتفظ به في إحدى زوايا الغرفة، وأولاه عناية فائقة للحفاظ عليه.

الغريب أنّه لم يرغب ولو لمرّة أن يفتح الصندوق، أو أن يحاول أن يستفيد مما فيه، لمعت الفكرة في عقله هذه اللّيلة، عليه أن يفتح الصندوق، ويرى ما فيه، ويحاول أن يستخدمه كما اعتاد مسيو ڤانسان الفرنسي أن يفعل.

ترك الاحتفال تحت حماية العسكر، لم يتغير شيء فيهم؛ ما زالوا غلاظًا قُساةً كعادتهم، خاصةً عندما فضّوا شِجارًا بين رَجُلَين،

ذهبت البوظة بعقْلَيهما، كادت قوات الأرناؤود أن تفتك بهما، وبكلّ المحيطين من حولهما، لولا هروب الرجلين؛ لتحوّل هذا الحفل الشعبي إلى مأساة دامية، لا يعلم على من ستحلُّ، لربما تقع الكارثة على أهل مصر أو على عاتق الباشا الجديد، لكنّ الله سَلَّم.

أكثر ما أبهر لُبّ كلّ الموجودين وسيطر عليه؛ هو الألعاب النارية بألوانها الزاهية، التي أضاءت سماء القاهرة، وما أن انتهوا من إطلاقها حتى عزم أحمد أن يعود إلى منزله؛ ليرى ما تركه صديقه الفرنساوي، قبل أن يعود إلى موطنه.

من شارع «ظهر الجمال»، دخل الحارة الغارقة في الظلام، ومنها دلف إلى العطفة، التي في وسطها بيته الصغير، قرع الباب، أسرعت فاطمة نحو الباب وهي تسأل في خوفٍ:

- «مَن الطارق؟»،

تعجّب كونها متيقّظة حتى هذا الوقت، طمأنها بأنّه هو من في الخارج، فتحت له الباب، تقدّم يسبقه بيرقه، دخل غرفته وتبعته أخته، نظر إليها متسائلاً عن سرّ وجودها معه هنا، فابتسمت وهي تقول :

- عاد أبوكَ والتهم الأرنب وحده، واحتلَّ مكاني إلى جانب أمي.

ضحك أحمد وهو يُجلِسها إلى جواره، تبسّمت وهي تسأله عن يومه ، فأجابها عن تفاصيل ما سمع وما رأى وعن الأقزام، الذين أضحكوه كثيرًا بحركاتهم الغريبة، وعن الشنك والحراقات والنفوط، حدّثها عن سماء القاهرة، التي أنارتها الألعاب النارية، بألوانها الزرقاء والحمراء والصفراء والخضراء، ولم يغفل أن يحدثها عن الشِجار، الذي دار بين مسطولَيْن، وكيف تعامل الأرناؤود معهما، وكيف أحزنه سوء معاملتهم وقسوتهم.

كادت أن تقع فاطمة في بئر النوم؛ حينها تذكرت أن تخبره بأنّ عليه الاستعداد غدًا ليستقبل خالتهما «لالا زار»[3] وابنتها في بولاق، وستصلان وقت الظُهر في موعدهما، كما يحدث كلّ عام؛ استعدادًا للرحيل لمولد البدوي في «طاندتا» (طنطا)، ذكّرته بمهمته، وذهبت في نومٍ عميقٍ.

طار عقله من الفرحة؛ اقترب موعد رؤيته لعائشة بنت خالته، كم يعشق السيد البدوي، وسيرته وحضرته ومولده، وكيف لا يعشقه وهو من يجمع بينه وبين عائشة، حلم عمره، وأمنيته الوحيدة في هذه الدنيا؟! تلك الفتاة، التي تقارب أخته في العمر، يلتقي بها مرّات معدودة سنويًا، أطولها هي مولد البدوي، أغمض عينيه وهو يصرخ بداخله: «شيء لله يا بدوي».

*****

3- اسم أنثى بمعنى حوض الزنبق

(3)

يد غليظة

عجَّ ميناء بولاق بالحركة، تجار، حمَّالون، حمَّارين، سماسرة، ولا مانع من بعض النشالين، ورغم انتشار الجنود في أرجاء المرفأ؛ لم يكن عندهم نية القبض على هؤلاء اللصوص؛ فالشركاء دائمًا ما يتعاونون ولا يطارد بعضهم بعضًا، على البوابات وقف رجال الشرطة يفتشون وينبشون الأحمال مهما صغرت، ضَجَّ التجار وهم يرون بضائعهم تُهدر على الأرض، رغم أنّهم يدفعون ما عليها من مكوس وعشور.

تمكَّنَ الضيق من الحمّارين والحمّالين؛ فلو استمر الوضع على ما هو عليه؛ سيمرُّ اليوم بلا عمل يذكر؛ كادت الشمس تتوسط كبد السماء، والجنود يضيّقون الخناق أكثر فأكثر، اقترب أحمد من رصيف الميناء، ووقف ينتظر، جو اليوم غريب ومتقلّب، مثله

مثل مزاج حراس الأمن في الميناء، وكأنّ فصول السنة تجمّعت في بضع ساعات، بعد أن أحرقت الشمس عظامه، اختفت فجأة خلف سحابات من الرمال الناعمة، التي تحجب الرؤية.

رجَّ كتفَه الأيمن يدٌ غليظةٌ، كادت أن تقتلعها، التفتَ خلفه؛ وجد جنديًا ينظر نحوه شزرًا، سحبه بعنف نحوه، حتى كاد أن يقتلعه من على الأرض، خرس من هول المفاجأة، ولم ينبس ببنت شفه، نكزه الجندي في صدره بهراوة في يده، وهو يسأله بصوتٍ حادٍ:

- ماذا تفعل عندك؟

الألم الحاد، الذي يشعر به الآن، يدعوه للصراخ، نظرات الجندي النارية دفعته أن يُخرج الكلمات متقطعة حارة، وكأنّها عرائض شكوى لربّ السماء..

- أنتظر خالتي.

- من أيّ جهة قادمة؟

- من الجيزة يا سيدي.

- من أيّ داهية في الجيزة؟

وصلت إلى مسامع الجندي صوت صفارة مدوّية قبل أن يستمع لإجابة على سؤاله؛ التفت حوله ثم نحو البوابة الرئيسة للميناء،

حيث وقف زملاؤه في صفوف منتظمة، هرول في اتجاههم مادًا عنقه محاولاً اكتشاف الأمر، توقف فجأة وعدّل هندامه، وضع سيفه بجانبه وركض، في نهاية الصف وقف معهم في ثبات وصمت.

لم يصدق أحمد نفسه بأنّه نجا من يد هذا الغاشم، دون أن يصاب بجرح غائر، أو يُكسر له سنًا أو أكثر، أو أن يحتاج لتجبير ضلوعه، أو يدفع له براطيل [4]، ومن أين له بالمال؟! وهو لا يجد عملاً، جلس على أرضية الميناء محاولاً أن يستعيد أنفاسه، حمد الله بأنّ خالته لم تصل وقتما وقع في قبضة ذلك الظالم، لو رأته عائشة وهو في موقف كهذا؛ قد تُغيّر رأيّها فيه.

نظر خلفه في حذرٍ، في صفّين مُنتظمَين تراصّ الجنود على جانبي البوابة الرئيسة للميناء، في انتظار مرور والي الشرطة، وقفوا في خيلاء؛ غابة من الأشجار الضخمة، لا يعلم أحد شيئًا عن خوائها، مَرَّ من بينهم منفوخًا كديكٍ حبشيّ، نفخوا صدورهم، ورفعوا رؤوسهم؛ ضباع في انتظار أوامر قائد قطيعهم، تلفّت الوالي حوله، وأشار في اتجاهات مختلفة، وهو يتحدث وعلامات الصرامة واضحة على وجهه، تقدّم أكبرهم رتبة، وأشار في اتجاه اليمين من الميناء، تقدم زعيمهم حيث أشار الجندي، تبعه دون تردُّد، تحرّكوا

---

4 - رشوة.

خلف قائدهم، توقف عن السير، أومأ للبقية بأن يعودوا لعملهم، وطلب من جنديين فقط أن يلحقا به.

تحامل أحمد على نفسه، ووقف على الفور، فَوَجْهُ والي الشرطة لا ينذر بأيّ خير، سار بشق الأنفس، وتحرّك رغم الألم الذي يعانيه؛ جلس خلف حائط خشبي قريب، في خفية أخذ يراقب الموقف، دون أن يراه أحد، عاد الجنود إلى ممارسة مهامهم المعتادة؛ تحصيل البراطيل من الخلق، ومَن يَرفض دفْع المطلوب؛ تُنبش بضاعته، وتُتلف بطُرق عِدّة على حسب نوعها، في وسط هذا اللغط، لاحظ أنَّ أحدهم لا يقترف أفعالهم، وقف أمام بوابة جانبية بطوله الفارع وسلاحه اللامع، تعجّب الجالس خلف الحائط عندما عرض عليه تاجر قصير بعض الدراهم؛ رفضها بهزّة خفيفة من رأسه، بعدما قلَبَ شفته السفلى في امتعاض، فتّش تِلّيسه[5] بحرصٍ دون أن يتلف ما فيه، وأعاده له، وسمح له بالمرور، بعد أن رماه بنظرة لم يتمكن المختبئ خلف الحائط من تفسيرها؛ أهيَ نظرة شفقة أم احتقار؟!

توقف عن متابعة الجندي، وانتبه للجَلَبَة القادمة من رصيف الميناء، ضيّق بين عينيه، حتى يشاهد بدِقة ما يراه، نادى الحمّالون على بعضهم، مركب من الجيزة محمّلة بالبضائع وصلت للتو، وقف خلف الحائط في حذرٍ؛ أطلَّ برأسه ناظرًا خائفًا من أن يراه أحد

5- التليس: كيس من الخيش.

الضباع؛ فيحتكّ به مرة أخرى، كما حدث منذ قليل، مَرَّ الوقت وفَرَّغ الحمّالون السفينة، دون أن يظهر لخالته ومن معها أيُّ أثَرٍ، قد يكون منعهم مانع من المجيء اليوم، وسيحضرون غدًا، تجرأ وخرج من مكمنه متحرزًا، فلا خوف من أن يراه أيّ شرطي مغادرًا الآن، وضع شاله الصوفيّ القديم على رأسه، واتجه نحو البوابة الجانبية الصغيرة.

اقترب من البوابة خافضًا رأسه، توقف فجأة عندما سمع صراخ رجُل يملأ المكان، وفرقعات الفرقة تدوّي في أذنه؛ تسمَّر في مطرحه، خرج قائد الضباع، والجندي الكبير، والجنديان الآخَران يدفعان أمامهم رجُلاً، يحمل تِلِّيسًا على ظَهره، أفرغوا محتوياته أمام الوالي، أحذية عسكرية طويلة الرقبة تناثرت على الأرض، في الحال تجمّع القطيع حول الرَّجُل، وانهالوا عليه ضربًا، وهم يكيلون له السّباب، نظر أحمد بطرف عينيه نحو الرجُل المنبطح على الأرض، والأقدام تركله في كلّ مكان يمكن الوصول إليه من جسده، وحبال الفرقة لم تترك مكانًا في جسمه، إلا وتركت أثرها عليه، وقف مذهولاً مما يرى، قارن بين معاملة الفرنساوي الكافر له، ومعاملة هؤلاء المسلمين لفريستهم، شَعر بلكزة خفيفة على ظَهره تدفعه للتحرّك، وصوت صارم يخترق أذنه:

- لماذا تقف هكذا؟

نظر خلفه، وجد الجندي، الذي رفض البراطيل من التاجر القصير، نظراته الحادة تستعجل الإجابة على سؤاله، تلعثم وهو يجيبه:

- لا شيء.

- هل تعرف هذا الرجُل؟

وأشار نحو الرجُل الملقَى على الأرض، والأقدام تتزاحم عليه لرَكْله، أجاب بسرعة نافيًا التهمة عن نفسه:

- لم أرَه من قبل مطلقًا.

- ما الذي أتى بكَ إلى هنا؟

- كنتُ في انتظار قدوم خالتي من الجيزة، يبدو أنّها لم تتمكن من المجيء.

- عليكَ الرحيل من هنا، ما اسمكَ؟

- أحمد سالم المرجاوي.

- أسرِع في المغادرة، فكما ترى والي الشرطة هنا، بعد أن أبلغنا عن القبض على هذا التاجر، الذي حاول تهريب بضائع للمماليك،

سوف أغمض عينيَّ وأفتحهما؛ بعدها لا أريد أن أراكَ في الميناء أو حتى بالقرب منه.

هَزَّ رأسه موافقًا، وأطلق لساقيه العنان، مسابقًا الريح، حمد ربه بأنّ اليوم قد مَرَّ على خير، رغم الألم الذي ما زال يطبق على صدره.

*****

(4)

الثثار

على أريكة وثيرة جلس يدخّن نارجيلته الفخمة، المصنوعة من البِلّوْر البلجيكي الفاخر، متأملاً سُحب الدخان المتصاعدة، مدّد ساقه اليمنى، وثنى اليسرى قليلاً أمامه، يبدو على عينيه الإجهاد والتعب، سنوات من التمني والترحال تتسرب من بين يديه كرمال ناعمة، يخاصمه النوم إلا ساعات قليلة كلّ ليلة، وكما تمنيه أحلامه بحكم مصر، تطارده كوابيس من استولى على عرش البلاد.

تولّت جارية روميّة وضع الجمر على الحجر الفخاري للنارجيلة، أحاطت الهموم بسيّدها إحاطة الدخان لحجر نارجيلته، نظر نحوها، وأشار إليها بوجه عابث بأنّه انتهى من التدخين، توقفت عن وضع الجمر على النارجيلة ذات المبسم الذهبيّ، وغادرت الغرفة في صمت.

اعتدل محمد بك الألفي في جلسته، الملل يحتلُّ حياته- ورغم ذلك- فشل اليأس في التسلل إلى قلبه، وكيف يقنط وهو من عجَز الفرنساويون الكفرة عن القبض عليه؟! كبّدهم خسائر لا حصر لها، وهم سادة الحروب الحديثة ومعلّموها، حيّرهم وأجهدهم حتى طُرِدوا من مصر على شفن أصدقائه.

استأذنه أحد حراس ديوانه أن يدخل عليه كاشف الفيوم، أشار له بالموافقة، في لحظات قليلة وقف الرجُل ماثلاً أمامه في ملابسه العسكرية المزركشة، بادره بالسلام، نظر نحوه الألفي بك، وتبسّم وهو يرد عليه السلام، أشار له بالجلوس، جلس بجانبه في تأدُّب، نظر نحو معلمه، أقلقه ما يرى، ملامح القلق والضجر واضحة على وجه سيده، أراد أن يطمئن ويخفف عنه، بادره بالقول:

- تبدو مهمومًا يا سيدي!

- كلّ ما حولي يدعو للحزن.

- روِّحْ عن نفسك يا مولاي، من نَصَرَكَ من قبل؛ قادر على نَصْرِكَ اليوم.

تنهد الأمير المصرلاتي من عمق قلبه، نصره الله كثيرًا، حتى شَعر أنّه غير قابل للهزيمة، منحته ثقته قدرة خرافية على تجاوز المصاعب والأهوال، وبثَّ الرعب في نفوس منافسيه وحاسديه، شَعر مملوكه بأنّ كلماته هذه لم تفِ بالغرض المرجو، حاول أن يغيّر

مجرى الحديث؛ علّه يتمكن من الترويح عن أستاذه..

- هناك سؤال يحيّرني، فهل تتفضّل بالإجابة؟

- سل ما شئت.

- عندما أقارن بينكَ وبين أستاذكَ أجد الاختلاف بينكما كبيرًا...

قاطعه الألفي قبل أن يكمل سؤاله، فَهِمَ مقصد الرجُل، وضع رِجْله اليسرى على اليمنى، ليتقاطعا قبل الركبتين بقليل ـ يستريح كثيرًا في تلك الجلسة ـ أرجع ظَهره للخلف، تنهّد لتذكُّره أستاذه، الذي دفع فيه ألفًا من الغلال كهدية مقابلة لسليم أغا الغزاوي، نظر نحوه فاتسعت ابتسامته، والكلمات تخرج جزلة من فمه:

- هل تعلم لماذا أحبّني مراد بك؟

- هذا ما يحيّرني رغم اختلافكما الواضح.

- لم يتقن أحد من تلاميذه فنون القتال مثلي، ومع هذا لم يكن ذاك هو السبب الحقيقي ليقرّبني منه ويعتقني بعد ذلك.

تعجب الرجُل من حديثه؛ صَمت الألفي.. مجرد إشارة لكي يسأله عن السبب فهذا هو أسلوبه، والرجُل يفهمه جيدًا فبادره بالسؤال:

- الكلّ يردد أنّ مراد بك رحمه الله أهدى ألفًا من الغلال لسليم أغا الغزاوي ردًا على إهدائه إياك، هل حدث هذا حقًا؟

- نعم، فعل، الكلّ يعرف هذه الحكاية، ويعلم أنّ هذا هو السرُّ وراء تسميتي بالألفي، لكنّه لم يحبّني أيضًا لأنّه دفع فيّ الكثير.

- ربما أحبّكَ لأنّكَ رفضتَ المعيشة مع المجنون.

ضحك كثيرًا عندما سمع هذا الاسم، لم يستطع أن يستجمع نفسه، إلا بعد أن سعل سعلات طويلة وحادة، خلّصته من الكثير من البلغم القابع في صدره، تمالك نفْسه ونظر نحو الكاشف، الذي احمرّت وجنتاه من السعادة؛ لأنّه أخرجه من عبوسه، أخذ الألفي شهيقًا عميقًا، أخرجه على مهلٍ، عاد وجهه للونه الطبيعي بعد أن تحوّل إلى الأحمر القاني إثر سعاله الحاد، وضع مبسم نرجيلته في فمه، سحب عِدّة أنفاس قصيرة متتالية، ثم نفَسًا طويلاً ليعيد حجر النرجيلة إلى الحياة مرة أخرى قبل أن يعاود حديثه:

- هل تعلم أنّني مَن طلبتُ من أحمد جاويش بك أن يبيعني؟

- حقًا!

- نعم، لقد كان جاويش هذا أو المجنون كما يحلو لي تسميته، قذرًا بطريقة لا يمكن وصفها؛ لم أتحمل يا رجُل رائحة منزله، رائحة الخمر، وعَرَق النساء، ونتن الدم ينبعث من كلّ مكان، صراخ النساء، والغلمان لا ينقطع طوال اللّيل، هو مجنون فعلاً، وجنونه، ومجونه يصل لحدّ السفه.

- فباعكَ للغزاوي بك كما طلبتَ؟

- لم أطلب بيعي للغزاوي بك بالتحديد، لم أكن أعرفه في هذا الوقت.

- لم تُجِبْ على سؤالي بعد.

- مراد بك أحبَّني لأنّ الناس تكرهني، هل تصدق ذلك؟!

ختم جملته، وانخرط مرة أخرى في نوبة من الضحك العصبي، بعد لحظات قليلة، رجع لنفْسه وأكمل حديثه:

- أتذكَّر يوم غضب عليّ لأنّي ضربت هذا المملوك، الذي لا أتذكر اسمه الآن، ومات بعد بضعة أيام، نفاني لكفر الشيخ طلحة عقابًا لي، هناك فعلتُ ما يحلو لي فعله، جمعتُ الكثير من الأموال انتقامًا منه لنفيي، ولأشتري مماليك أكثر، قدَّم الأهالي الكثير من الشكاوى له، لكنه لم يحرِّك ساكنًا؛ وقتها فقط شعرتُ بحبّه لي.

- لهذا أصبحتَ سنجقًا؟

- لا، حدث هذا عندما اتفق الأمراء على نفي الأمير مصطفى إلى الإسكندرية، ولم يجرؤ أحد على مرافقته إلى منفاه، كنتُ سبّاقًا، وتقدمتُ بكلّ شجاعة لإنجاز المهمة.

- وهل نجحتَ في مهمتكَ؟

- نعم، وطلبتُ منه كشوفية الشرقية كَمكافأة.

اندهش الضيف عندما علم أنّها كانت من اختياره، وليست فرضًا من أستاذه، تساءل متعجبًا:

- مع أنّهم أهل إغارة وسلب ونهب! لماذا اخترتَها في حين كان بإمكانك اختيار مكان أفضل؟

- بالعكس هذا هو ما دفعني لأن أختارها، فلا يفلُّ الحديد إلا الحديد، كنتُ أهوى عمل الشراك لهم؛ كم استمتعتُ وهم مكبّلون بالحديد ويتوسلّون راجين رحمتي وعفوي.

- يبدو أنّ ما مارستَه هناك ساعدكَ كثيرًا في مقاومة الفرنساويين

- بالطبع، فقد ضربتُ عصفورين بحجر واحد، تدربتُ على تلك النوعية من الحروب، وبسطتُ نفوذي على عربانها.

توقف عن الكلام عندما شَعَر بمرارة في حلقه؛ ربما من أثر الدخان، أو لشعوره بالندم على كثير من أفعاله في الماضي، طلب أن يُحضروا لهما بعضًا من القهوة والحلوى، في الحال كان كل ما أمر به أمامهما، تحمله جارية ذات ملامح مثيرة، وقوام ممشوق، ونهدين نافرين.

التخبّط الذي أحاط الألفي بادٍ عليه، رغم أنّه يُحكِم قبضته على رجاله، والكثير من العربان يتبعونه، إلا أنّ أمراء مصر انفضوا

مـن حولـه، تشـرذموا فـي فضائهـا الواسـع، أغبيـاء كَغبائـه عندمـا كان غـرًا، تمـادى فـي ظلمـه وغيّـه، حصـد الطاعـون مـن رجالـه وأتباعـه مـا حصـد، في لحظات قليلة يتحوَّل الفارس منهم لمجرد جثة، تعلّم من المـوت كيـف يحـبّ الحيـاة، ويتمسك بها؛ فهـي تسـتحق أن يخـوض الحـرب تلـو الحـرب ليحياهـا كمـا يـروق لـه.

صبّت الجارية القهوة لسيدها وضيفه، ثرثر الضيف كثيرًا، مبالغًا فـي وصـف مناقب المضيـف، ابتسم لـه فـي تـودد مصطنع، عقله فـي مـكان آخـر؛ هنـاك فـي القلعـة حيـث العـرش، الـذي كان قـاب قوسين منـه، كانـت كلّ الظـروف مهيـأة تمامًـا لأن يعتليـه، وعلـى حيـن غـرّة يظهر هـذا القراقوز الألبانـي ليبعـده عنـه، أغمـض عينيـه فَـرآه بعينيـه الواسـعتين، ولحيتـه الحمـراء الكثـة، يُخـرج لـه لسـانه، فتـح عينيـه؛ ليجـد ذاك الثرثـار مسـتمرًا فـي حديثـه، أشـار إليـه بـأن يصمـت، فهـم الكاشـف الرسـالة دون عنـاء، فشـكره وأذن لـه بالانصـراف.

وضعـت الجاريـة القهـوة جانبًـا، واقتربـت مـن سـيدها محاولـة أن تحظـى بـه فـي ليلتهـا، دون أن ينظـر نحوهـا، أشـار لهـا بـأن ترحـل فـي صمـت، رحلـت خارجـة مـن القاعـة، مصمصـت شـفتيها الحمراوَيـن، ورفعـت حاجبها الأيمـن في سـخرية، بعـد أن ابتعـدت عن بـاب القاعـة، لطمـت خدهـا برفق، متحسـرة على فرصـة ضاعـت منهـا، فقـد لا تسـنح الأقـدار بمثلهـا.

*****

(5)

زغرودة فرح

وسط الزحام الشديد وتدافُع الناس، صعُبت مهمة أحمد في أن يصل لحمّار، تصبّب العرَق من جسمه النحيف، أنهكه اللفُّ على الحمّارين، تآكلَت قدماه من المشي، وهم لا رحمة ولا شفقة، أسعار تأجير حمار صغير ازدادت ضعف ما كانت عليه في العام السابق، كلّ شيء تضاعف سعره رغم الفقر، الذي عمّ البلاد وانتشر.

وأخيرًا تمكنّ من الفوز بواحد واستئجاره، قد يبدو ضعيفًا للمهمة المطلوبة، لكنه على كلّ حال سَيَفِي بالغرض، رفض الجميع قبول هذا الجحش، وهو كافٍ بالنسبة لرحلة السيد البدوي، تهاود صاحبه في أجرته، امتطاه ومشي به كفارس منتصر ،عائد من حرب عظيمة، فخورٍ جدًا بنفسه وبغنيمته.

أمام البيت كان الجميع في استقبال فارسهم المغوار، قفز من على ظهر حماره في حركة استعراضية، كاد أن يرتطم بالأرض، لولا يد والده التي أمسكته، كادت «عائشة» و«لالا زار» أن تقعا على الأرض من الضحك على فارسهم، تسلّم «سالم» الحمار، ووضعه أمام العربة الكارو، التي أعدَّها من قبل، وربطه بها.

كان عندهم حمارٌ من قبل، قويٌّ وضخم، اشتراه الأب جحشًا صغيرًا، تولّى أحمد رعايته، وعامله كفرد من أفراد العائلة، لكن الأتراك سرقوه في تجريدة[6] الحمير، لم يجد العثمانيون ما ينقلون به آلات حربهم ضد المماليك؛ فجمعوا كلّ حمير القاهرة، لتساعدهم في مهمتهم، في تلك الأيام وصلت الأخبار له.. بأنّ العساكر يخطفون الحمير من مالكيها. أخفى حيوانه العزيز داخل البيت، بعد أن كان يربطه خارج المنزل، لكن هيهات، يتذكّر جيدًا عندما وقف عسكري تركي طويل بطربوش أحمرَ قانٍ، منتفخًا وهو يصرخ أمام بيتهم بصوت مفزع: (زر).

لسوء حظهم، ارتفع نهيق الحمار من الداخل؛ فهجم العسكري على البيت، وسحبه خلفه أمام عينيّ أحمد، لم يستطع أن يمنعه، لو أقدم على هذا؛ لأرداه قتيلاً، فرح جميع من سُرقت حميرهم عندما هَزَمَ محمد بك الألفي الأتراك، رغم أنّ هذا الانتصار لم يعوّضهم ما فقدوه، أو يعيد لهم حيواناتهم، التي تشاركهم وتقاسمهم صفة الصبر.

6-تجريدة: حملة عسكرية.

فشل أحمد فيما نجح فيه «مقبل» جاره، أخفى الحمار داخل منزله، حكى له كيف تمكّن من هذا، وضع قطعتين من القماش في أذني حماره، وهكذا نجا من السرقة، وها هو يعدّ عربته هو الآخر ومعه حماره، ستترافق العائلتان في الطريق ككلّ عام.

على بوابة السعادة وقف صف طويل من عربات الكارو، والحمير، والجِمال، تَحرّك الصف ببطء متناهٍ، وجلس أحمد بجلباب قديم رصاصيّ اللون على إحدى العربات، وفي يديه حبل سرعة الحمار على الطرف الأيمن للعربة، ذات العجلات الخشبية، في وسط العربة جلست أمّ أحمد وأختها «لالا زار» يتبادلان ذكرياتهما عن رحلتهما السنوية إلى طاندتا، في الخلف جلست فاطمة وعائشة تتبادلان أطراف الحديث، وعين بنت الخالة لا تكفُّ عن النظر على ابن خالتها؛ قائد الرحلة.

استرق أحمد النظر نحو بنت خالته، تأمّل عينيها السوداوين، وحاجبيها المقوسين، الذَيْن زادا عينيها اتساعًا، لاحظت عائشة نظرات ابن خالتها، التي تكاد أن تلتهمها في تلذّذ ورفق؛ فاحمرت وجنتاها خجلاً، حاولت فتح حديث مع فاطمة، التي غمزت لها بعينيها، وأومأت برأسها نحو أخيها، ازدادت حمرة وجه عائشة، فدفنت رأسها بين رِجْليها، تعالت ضحكات فاطمة والمرأتين، عاود أحمد النظر أمامه منتبهًا للطريق، كما أمرته أمّه، وعلى وجهه ابتسامة رضا.

تَحـرّك الصـف بعـض الخطـوات، فجـأة حـلَّ الهـرج والمـرَج فـي المكان، فقـد قبض أحـد العسـاكر على تلّيـس مملـوء بملابـس لجيـش المماليـك، لـم تُجـدِ البراطيـل؛ لأن التعليمـات مشـدّدة، ومـن يخالـف التعليمـات، أو يتقاعـس؛ لا يعـرف مـا سـيحدث لـه فـي سـجون الباشـا.

تعطّلـت المسيرة بعـد أن أحكَم الجنـود إغلاق البوابـة، عاثـوا فسـادًا في ممتلكات النـاس، نبشـوا كلّ ما تصل إليـه أيديهـم، أتلفـوا الطعـام، الـذي أعـدّه المغـادرون لمولـد البـدوي، ألقـوا النـذور تحـت سـنابك خيولهـم، ضربـوا الرجـال وسـبُّوا النسـاء.

تلفّـتَ أحمـد حولـه فـي قلـق، كان طعامهـم قليـلاً، يكفيهـم بالـكاد؛ بعـض الخبـز الملـدن، عسـل أسـود، والقليـل مـن السـمن، وقطـع مـن الجبـن القديـم، لـو فقـدوا مؤونتهـم؛ سـيعودون دون أن يـزوروا المقـام، الـذي اعتـادوا زيارتـه كلّ عـام.

ضـجَ المـكان بغضـب الجنـود، تعالـت أصـوات الفرقـلاّت علـى صـوت همهمـات النـاس، زاد جمـوح حـراس البوابـة، وجالـوا ظلمًـا بيـن المسـافرين، كلّ مـن حـاول أن يمنعهـم، ولـو بكلمـة أو رجـاء؛ مصيـره الضـرب المبـرح، التصقـت فاطمـة وعائشـة بأمّيهمـا، زاغـت نظـرات الجميع، قفـز أحمـد مـن فوق العربـة، وجـرى نحـو جنـدي يقـف بالقـرب مـن البوابـة، ووقـف أمامـه فـي احتـرام مبالـغ فيـه، انحنـى علـى يـده ليقبّلها، نزعهـا الجنـدي منـه برفـق، رفـع أحمـد رأسـه، فابتسـم الجنـدي وهـو يربـت علـى كتفـه:

- أنتَ أحمد المرجاوي، أليس كذلك؟

اندهش أنّه يتذكر اسمه، أجاب على الفور:

- نعم، يا سيدي.

- كنتَ في انتظار عمتكَ أو خالتكَ في ميناء بولاق من يومين؟

- نعم يا سيدي.

- هل حضَرَت؟!

- نعم، عندما عدتُ إلى المنزل وجدتُها هناك، يبدو أنّها مرّت دون أن أراها.

وماذا تريد يا مرجاوي؟

- أتوسل إليكم أن نمرَّ من البوابة دون تفتيش، أو أن تفتش متاعنا أنتَ إن تكرمت.

أشار الجندي لأحمد أن يسبقه، جرى أحمد نحو العربة، والصّفرة ما زالت تعلو ملامحه، اقترب من العربة، في عجالة ألقى الجندي نظرة على متاعهم؛ قِطع من الجبن القديم، وعروق الكرنب المغموسة في المِش الأصفر المعتق، أرغفة خبز يابسة عجنتها، وخبزتها أمّ أحمد من دقيق الذرة، وبعض حبّات البصل، أشار لأحمد بأن يتجه نحو البوابة، ورجاه أن يفتّش عربة عائلة «مقبل» جاره، نظرة واحدة صارمة كافية بأن يعتذر عن طلبه، ويسرع في عبور البوابة.

شقّت العربة طريقها بصعوبة بالغة نحو البوابة، سحب أحمد الحمار، ونكزه ليُسرع؛ فكلما حاول جنديٌّ التعرض للعربة، أخبره الجندي بإشارات من يده بأنّه فتشهم، ولم يعثر على شيء مخالف، وأخيرًا مرُّوا من البوابة، رفع يده نحو الجندي شاكرًا إيّاه، لكنّه أغلق البوابة دون أن يردّ التحية.

أطلقت «لالا زار» زغرودة فرحة؛ بأنّهم مَرُّوا من هذه الغمّة على خير، حثّ أحمد الحمار على الإسراع، تمنى أن يطويَ الأرض طيًّا؛ ليصلوا إلى طاندتا في ثوانٍ، الطريق طويل، والشمس أوشكت على المغيب، جدّ في المسير قبل أن يحلّ اللّيل، بعد ساعات قليلة سيكون التحرّك على الطرُق أمرًا خطيرًا، حتى لو كنتَ تسير مع قافلة، على بُعد رأى قرية صغيرة؛ تنفس الصعداء، سيبيتون ليلتهم على أعتابها.

على أطراف القرية تزاحم الكثير من المسافرين، تجمّعوا في حلقات وأشعلوا النيران وجلسوا حولها يتسامرون، وبالقرب من عائلة صغيرة أوقف أحمد العربة، وألقى عليهم السلام؛ فرحّبُوا بهم، نزل ثم أنزل أمّه وخالته، وبرفق تناول بنت خالته من خصرها، تلاقت عيناه بعينَيها من تحت البُرقع، ارتجّت أنفاسهما، تمنَّى أن يضمّها، ويُدخلها في ذاته ويتوحّد معها، يصبحان جسدًا واحدًا، انتظرت منه ذلك, لو فعلها؛ ما منعته، رغبتها في أن يمتلكها وتمتلكه كانت قوية؛ لدرجة أنّها نسيَت كلّ من حولها، لم تعِ وجود أمّها، لم تهتم

بنظرات خالتها، لم تخجل من نظرات الناس حولها، ولا ضحكات الشباب المسافرين، وصفيرهم العالي، وكزات يد فاطمة على كتف أخيها كانت كفيلة بإنهاء الحلم الجميل، هبطت من سحابتها العالية، سحب يده بخفة من جانبي خصرها وضغط عليه، تمنَّت أن يكونا وحدهما في هذا الكون، حسدت أمّها حواء على وحدتها مع آدم، كم كانا سعيدئن قبل أن يأتيا بكلّ هذا الخلق لهذا العالم.

*****

(6)

شيطان الغيرة

قبل أذان الفجر بقليل، أفاق أحمد من نومه على صخب، تلفَّت حوله؛ وجد زورقًا تصدح منه الموسيقى، وضوء فوانيسه الباهرة الملونة تنعكس على صفحة النيل، اقترب من الشاطئ فَرأى ثلاث راقصات، شبه عاريات، يرقصن في مجون أمام بضعة رجال، قد ذهب الخمر بعقولهم، إحداهن سمينة ممتلئة، ثنايا بطنها تتدلى أمامها، مع أقل حركة منها يرتجّ لحمها، وكأنّه يتردّد في السقوط من على جسمها، نامت على سطح المركب الصغير، غارقة في إيماءات فاضحة، زادت من حركاتها، وغاص الرجال في الضحك، حتى كاد أن يقع أحدهم من على المركب، في مقدمة الزورق راقصة قصيرة إلى حد ما، لم تكن ترتدي إلا ما تستره ورقة التوت، صبغت شعرها باللون الأحمر، أو هكذا رآه أحمد في ضوء المصابيح الصفراء، التي تضيء المركب من الأمام، تعلّقت عيون الرجال كلّهم بالراقصة

الثالثة، والتي كانت متوسطة الطول، شعرها الأسود الطويل الناعم التصق بعضًا منه بظَهرها إثْر العرَق، الذي ينـدِّي جسمها الخمري، ترقص بدلالٍ بالغ أثار أحمد، أثناء متابعته الزورق وهو يبتعد رويدًا رويدًا من أمام ناظريه.

اِنتبه لنفسه عندما وجد مجموعة من الشباب يقفون بجواره، يتابعون الموقف مثله، بل إنّ بعضهم تتبع الزورق؛ ليمتع نظره بتلك الفاتنة ذات الشعر الناعم، تلفَّت حوله، وجدهم جميعًا هائمين في خيالاتهم، مدّ أحدهم يده في شِقّ جلبابه؛ يداعب قضيبه في تلذذٍ وبلاهةٍ، داهمه الخجل، وقرّر العودة ليكمل نومه، رجَّت تكبيرات أذان الفجر نفوس الهائمين، وأيقظت من لم يحظَ بمتابعة الزورق، انتشروا خلف الأشجار، وبين البوص، لقضاء حاجتهم، ثم عادوا مسرعين إلى النيل للوضوء، اِغتسلوا بماء حَمَل لهم المعصية من قبل؛ ليتخلّصوا من ذنوب فتنَتْهم منذ قليل، اِصطفُّوا وراء كهلٍ ذي لحية طويلة بيضاء، ووجْه أسمر، وظَهْر معقوف، رفع أحمد عقيرته ليقيم صلاة الفجر، ومشهد الراقصة الخمرية يتحرك أمام ناظريه.

عاد لعائلته، وجدهم أفاقوا من نومهم، نظر لوجه أخته، الذي كاد أن يضيء من البياض والجمال، ألقى نظرة على وجه عائشة، فوجد النور يفيض من وجهها هي الأخرى، لا تقِلُ جمالاً عن أخته، مع جسم نافر يسابق عمرها، لمعان عينيها يكاد يفضح حبّها له، وحمرة شفتيها تدعوه لتقبيلهما، جلس وسطهم؛ فالتفُّوا في

شبه دائرة حول قطعة من الجبن القديم والخبز الجاف، جمعت عائشة وفاطمة بعض الخضروات الورقية، التي نبتت على أطراف حقلٍ قريبٍ، جلس وسط أخته وأمّه وبادلهم تحية الصباح، مد يديه ليتناول كسرة خبز، وفجأة تذكر الحمار المسكين الذي يجرّ عربتهم، لا بد أنّه هو الآخر جائعٌ، فعاد لضفّة النيل، جمّع حشائش كافية له، وضعها أمامه وعاد مسرعًا، ليستقر بين أمّه وعائشة، وعيناه مُعلّقتان على شفتيّ ابنة خالته، اللتين تتحركان في رتابة مثيرة، وهي تمضغ طعامها.

قبل أن يلمع النهار، تحرّكوا جميعًا في شبه قافلة، نظر حوله يتبيّن هل تمكّن جاره مقبل من اللحاق به؟ لكنّه لم يستطع أن يراه وسط هذا الغبار، الذي تثيره الحيوانات، وهي تدب دبيبًا لا يتوقف نحو المولد في وسط الدلتا.

قبل أن تتوسط الشمس كبد السماء، مرّوا بجوار الزورق الماجن، سكنت الموسيقى، نامت الفرقة الموسيقية تحت مكان ظليل، إرتمى الرجال نائمين بجانب الراقصات، تحت لهيب الشمس، بعد أن أنهكهم اللهو، وأفقدهم الخمر وعيهم، بحث أحمد عن ذات الشعر الناعم، التي فتنتْه منذ ساعات قليلة، وجدها نائمة في أحضان رجُل، فحاول أن يتبيّن ملامحها، لم يتمكّن من ذلك، لاحظ أنّها شديدة القِصَر عمّا كان يتصوّر عندما رآها لأول وهلة، كما أنّ بشرتها كالحة لا جاذبية فيها، وشَعرها الطويل ليس بالأسود، ولا هو ناعم، على العكس كان كستنائيًا شديد التجعد.

لاحظت فاطمة انشغال أخيها بالنظر نحو الزورق الطافي على وجه النيل، وكزت عائشة منبّهة إياها لما يدور حولها، غلى الدم في عروقها، وسَرَت سموم الغيرة في جسدها، طاش عقلها، قامت غاضبة من فورها، وجلست إلى يساره لتحجب رؤية النهر وما فيه عنه، وقد تملّكها الغضب، وبادرته وهي تحاول أن تخفف من حدّة صوتها:

- إلَى مَا تنظر؟

تنبّه أحمد من شروده، ولم يجد ما يجيب به، رسم على وجهه إبتسامة ساذجة، وهو يردّ:

- لا شيء.

نظرت عائشة خلفها نحو الزورق، الذي تجاوزوه بقليل، وأشارت نحوه وهي تكزُّ شفتيها، فَزادتا تألقًا:

- من فيهن تعجبكَ؟ تلك الشمطاء الهزيلة أم هذه السمينة التي تشبه البقرة؟

- لا أحد، كنتُ أتأمل فقط مياه النيل.

- عليكَ أن تستدير الآن وفورًا، لا أريد أن أذهب لطانتدا هذا العام.

نظر أحمد نحوها، والدهشة طافية على عينيه، وتساءل بصوت حانٍ:

- ماذا حدث لكلّ هذا؟

- ألا تعرف ماذا حدث؟

- لا، لا أعرف، أخبريني أنتِ.

- تنظر لتلك الغانيات وتسأل في براءة مصطَنَعة ماذا حدث؟

دقّ قلب أحمد من الفرحة، غَيْرَتها عليه ما هي إلا علامة من علامات الحبّ، زاد جنون الغَيرة قلب عائشة احتراقًا، أردفت طالبة في إصرار:

- عُد بنا الآن كما أخبرتك.

- لا لن نعود، ولم أكن أنظر لتلك النسوة، وكيف أنظر لهن وقد أعمى نوركِ عينَيَّ!

انفرج فمها عن ابتسامة أخفتها بسرعة، وعادت لتقطب ما بين حاجبيها، وهي تهدّد:

- لو حدث ذلك مرة أخرى ستعود بنا إلى مصر، مفهوم؟

- لم يحدث من قبل ليحدث بعد ذلك، ومع ذلك، نعم، مفهوم.

أشاحت بوجهها بعيدًا عنه، في حين تعالت ضحكات الأمّهات في الخلف، تلك الضحكات التي كتمْنَها منذ فترة طويلة، منتظرات نتيجة النقاش الهامس بينهما، أشار أحمد لها بأن تعود لمكانها، فقد اقتربوا من الصندل الذي سيعبر بهم النيل، أوشكت رحلتهم على الانتهاء، ساعات قليلة ويكونون على مشارف أعتاب البدوي.

توقفت القافلة في انتظار عودة الصندل من الضفة الأخرى، لا نظام يرتب هذا الزحام، الرغبة في السبق هي المسيطرة، حتى لو كنتَ آخر الواصلين، مما يؤدي للكثير من المشاجَرات، التي تبدأ بصوتٍ عالٍ يتحوّل إلى سباب، تزداد حدّة الموقف فينقلب إلى تهديدات بالاشتباك بالأيدي، وبعد تدخلات من بعض الحكماء يتحول الشجار إلى خَلَبَة من التعارف.

في وسط هذا الزحام قفز أحمد من العربة وتلقّف الجرّة الفخارية، وذهب نحو الشاطئ، الصندل لم يرسُ بعد على الجهة المقابلة، والوقت وافر لأن يملأها؛ انحنى وغمّسها كلّها تحت الماء، تأمل محاولات الهواء للهروب من داخلها على شكل فقاعات متتالية، لاحظ نظرات عائشة تراقبه عن كثب، لو لمحته ينظر لغيرها ستغرقه في ماء النيل هو والجرَّة، وكلّ من يعترض على هذا، هكذا حدّثها شيطان غيرتها الجامح.

عاد إلى العربة ووقف ينتظر دوره، عاد الصندل واستقر، وتدافع الجميع نحوه، مَرَّ «أحمد» بعربته على الرصيف الخشبي الضيّق

في طريقه نحو الصندل، وبعد العديد من المحاورات، التي يتقنها، شَعَر بأنّ هناك عيونًا تراقبه، إنها ليست عيون عائشة، مراقبتها له تثير في داخله مزيجًا من المشاعر المحببّة المغلفة بالطمأنينة، هذه المرة يشعر بنوع من القلق والريبة، تلفّت حوله محاولاً أن يتبيّن صِدق حدْسه، الذي لم يكذب عليه من قبل، لم يستطع تبيُّن ما يُرْبِكه، في دقائق امتلأ الصندل، وقف على عربته جاهدًا أن يكتشف من يراقبه، جذبته عائشة من طرف جلبابه بقوة لأسفل، كاد أن يفقد توازنه، ويقع على وجهه، لكنّهُ تمالك نفْسه وجلس، وكما كانت الغيرة تحرق قلب ابنة خالته من قبل، اشتعلت نار الحيرة في جسد أحمد الطويل الممشوق.

*****

(7)

رصاصات عشوائية

أعاق الزحام خلف المسجد البدوي أحمدَ مِنْ أن يشقّ طريقه، وسط تلك الضوضاء سمع من يناديه، تلفَّتَ حوله، لم يستطع أن يجد مصدر الصوت، تكرار النداء؛ جعله يقف على العربة مرة أخرى، يستطلع من يناديه، على بُعد أمتار قليلة وجد «مقبل» يلوّح له بحماسٍ، يشير له بأنّه حَصَلَ على خيمة، وحجز أخرى من أجله، لم يتعجّب من أنّ جاره قد سبقه، رغم أنّه لم يرَه مُطلقًا في طريقه، ولم يندهش أنّه عثر على خيمتيْن لهما، فهو ساحر وله طُرُقه وحلوله المبتكَرة، وكما حافظ على حماره من قبل، هو قادر على أن يفعل أيّ شيء، كمشعوذ سُخّرت له قبيلة من الجان لتلبية أوامره.

في الحال دخلت النسوة إلى الخيمة، يرتبن متاعهن القليل، زادت دهشتهن عندما وجدن الكثير من المؤن؛ سمن وعسل ودقيق

ولحـم وأشـياء أخـرى كثيـرة، وقـف أحمـد مـع مقبـل بيـن الخيمتيـن ليشـكره، ولأول مـرة فـي حياتـه يشـعر بـأنّ جـاره الغامـض يمكـن أن يفيـده، لـم ينتـهِ أحمـد مـن كلمـات الشـكر حتـى خرجـت أمّـه لتشـكره هـي الأخـرى، لـم تكتـفِ بالشـكر بـل سـألته:

- كيف حصلتَ على هاتين الخيمتين؟

تبسّم وهو يجيبها:

- أهـل الخيـر دلّونـي عليهـا، عنـدمـا طلبـتُ منهـم خيمـة أخـرى لـم يمانعـوا، وقفـتُ حارسًـا عليهـا حتـى تحضـروا وتسـتلموها.

- وأهل الخير هم من وفَّروا كلّ ما فيها؟

- نعـم يا أمّ أحمـد، وجـدتُ فـي خيمتـي نفْـس مـا عندكـم، شـيء للـه يا بـدوي مـدد.

لم يفهم أحمد ما يتحدثون عنه فسأل أمّه:

- وماذا وجدتِ في الخيمة؟

لـم تجبـه، وربمـا لـم تسـمعه مـن الضجيـج حولهـم، أو أنّهـا تركـت الإجابـة لمقبـل، وانصرفـت عائـدة لخيمتهـا وهـي تـردد:

- مدد يا سيّد، مدد يا بدوي، مدد يا آل البيت.

أعاد أحمد السؤال عليه، فأجابه باقتضاب وهو يهز رأسه كالدراويش:

- ربكَ غمرنا بخيره، نقول لا ؟! الله حيّ؛ مدد.

سحبه من يده وراحا يتجولان في المولد، ورأسه مستمر في التأرجح، توقف أحمد عن الكلام، بدأ ينظر حوله محاولاً التعايش مع أجواء المناسبة، كان المتسولون يملأون المكان، في كلّ خطوة تقريبًا يوقفهم رجُل أو امرأة أو طفل يطلب منهم حَسنة، يستثمرون عاهات مصطنعة تفنّنوا في إظهارها، لم ينشغل بهم لسببيْن؛ أولهما.. أنّه لا يملك شيئًا ليُحسن لهم به، ثانيهما.. هم لا يستحقون الإحسان، وهو واثق من هذا، ما لفت انتباهه هو منظر الأطفال البائس بسيقانهم الهزيلة وهم يمشون شبه عراة، أعناقهم المدلاة على صدورهم من الضعف، أثار الشفقة في نفسه، صحيح أنّه معتاد على رؤية مثل هذا من قبل لكن ليس بمثل هذا العدد، حتى في السنوات الماضية وفي نفس هذه المناسبة لم يكونوا بهذا الكم، كان رفيقه عكسه تمامًا، فلم يهتم بأمرِ هؤلاء مطلقًا، وكيف له أن يهتم وهو يتابع أولئك النساء، اللواتي وقفن أمام بعض الخيام، ينادين راغبي المتعة بألفاظٍ وإيماءاتٍ جنسيةٍ متعارف عليها، لحظات قليلةٍ وتاه أحمد عن جاره، نظر حوله لم يجده، عاد أدراجه نحو خيمته ليمارس مهنته القديمة التي يهواها وهي الطبخ.

في الخيمة عرف إجابة سؤاله، وجد كلّ ما يحتاجه لطهي وجبة فاخرة، حتى لحم الضأن كان متوفرًا، أشعل نارًا خلف الخيمة، وشرَعَ في عمله، وقفت عائشة تشاهده وهو يحاول إشعال النيران، ويدها تفرك بعض فصوص الثوم لتقشرها كما طلب حبيب قلبها.

جذبت رائحة الطعام بعض النّسوة وأطفال الخيام حوله، وقفن يتابعن الطبّاخ الماهر وهو يعِدّه، بعضهن سألنّه عن طريقة عمل بعض الأطعمة، كان يجيبهنّ ورأسه مطأطئة في الأرض، أو محاولاً التظاهر بالانشغال في عمله، كلّ هذا لم يشفع له عند الغيورة،

ما إن انتهى من الطهو، وحمل القدور داخل الخيمة، حتى قابلته عائشة بوابلٍ من الكلمات اللاذعة، حاولت أمّها تكميم فمها، لكنها لم تفلح في هذا، وانطلق من فيها الكلام كبندقية انطلقت منها رصاصات عشوائية دون أن يضغط أحد على زنادها، وانتهى القصف بكَيْلِ اللعنات عليه.

هدأت بعض الشيء، وأصرّت على رفضها مشاركتهم وجبتهم، وبعد إلحاح من الجميع؛ وافقت أن تأكل، بعد أن أمْلَت شروطها بأن يتوقّف عن الطهي، أو أن يطهو داخل الخيمة، وعلى الجميع أن يتحملوا الدخان، وافقوا على ذلك، فجلست لتأكل وهي تعطيهم ظَهرها .

قبل أن يبدأوا في تناول غدائهم، وصل إلى مسامعهم صوت مقبل من خارج الخيمة، وصوت تصفيق يستأذن أن يخرج أحمد إليه، قام على مضضٍ وسط سخط كلّ مَن في الخيمة على جارهم،

الـذي وَفَّرَ لهـم تلـك الخيمـة الأنيقـة ومحتوياتها الفاخـرة.

سـأله عـن سِـرّ اختفائـه فلـم يجبـه، أخبـره بـأنّ هنـاك شـخصًا مـن عِليـة القـوم ينتظـره فـي خيمتـه، تسـاءل عـن سـرّ هـذا الرجُـل، ارتبـك قليـلاً قبـل أن يجيبـه، خمّـن بأنّـه ربمـا شـمّ رائحـة طبخـه ويريـد أن يتذوقـه.

تميّـزت خيمـة مقبـل بكبـر حجمها، كمـا أنّها مقسـمة لقسـمين جـزء كبيـر منهـا مخصـص كديـوان صغيـر مفـروش بحصيـرة علـى أطرافها مراتـب قطنيـة مرفوعـة بعـض الشـيء عـن الأرضيـة، للخيمـة نافـذة عليهـا سـتارة رقيقـة مرسـوم عليهـا بعـض الـوَرْدِ زاهـيَ الألـوان، فـي صـدر الديـوان وعلـى أكثـر المراتـب اِرتفاعًـا جلـس رجُـل طويـل، توحـي ملابسـه بأنّـه تاجـرٌ غنـيٌ، أو رجُـلُ دولـةٍ، ذو شـأن عظيـم، لثّـم وجهـه بشـالٍ كشـميريَ أزرق متناسـق مـع ألـوان ملابسـه، التـي اتّسـمت بالرّقـة والفخامـة.

نظر الملثم لأحمد، وسأله دون أن ينزع اللثام عن وجهه:

- أنتَ أحمد سالم المرجاوي؟

- نعم يا سيدي.

- هل تجيد الطّهي؟

تدخّل مقبل في الحديث:

- إنّ رائحة طعامه تجذب أهل الحي يا ...

نظرة واحدة من الملثم جعلت مقبل يبتلع لسانه ويقف صامتًا، لم يُعد الملثم السؤال، فأشار بيده لأحمد أن أجب، استجمع شجاعته وهو يتلعثم في الردّ:

- أعتقد ذلك يا سيدي، كل من تذوق طعامي أبدى استحسانه.

- هل تجيد طهو الأكلات الإفرنجية؟

- كل أنواع الطعام يا سيدي، تعلمت الأكلات الإفرنجية أثناء خدمتي لمسيو ألبرت...

قاطعه الملثّم في حدّةٍ:

- أعلم أنكَ كنت تعمل عند هذا الفرنسي الكافر، أنت مطلوب للعمل عند مسلم هذه المرّة، ستتقاضى أضعاف ما كان يدفعه لكَ هذا الكهل المشرك.

- لكن يا سيدي...

أشار الملثم له بيده أن يتوقف، فتوقف بسرعة، جذب أحمد برفق وأجلسه بجواره، مدّ يدَه لطبق الفاكهة الموجود أمامه، التقط تفاحة كبيرة وعَرَضَها على أحمد، وهو يكمل حديثه في هدوءٍ وثقةٍ:

- أنتَ مكلف بهذا العمل من قِبل جناب الباشا.

- محمد علي!

- أَجَل، أفندينا محمد علي باشا.

- هل سأعمل عند مولانا الباشا؟

- لا؛ بل ستعمل عند عدو للباشا.

ظهرت الحيرة على وجه أحمد، اقترب الملثّم منه، وهمس في أُذنه، بعد أن تعالت بعض الصيحات في الخارج:

- سنرسلكَ لتعمل عند محمد بك الألفي، لا تهتم بذلك، كلّ شيء مرتب، هل أنتَ مستعد لزواجكَ من عائشة؟

نظر أحمد نحو مقبل، الذي أشار بيده أنّه لم يخبره بشيء، أكمل الملثم حديثه:

- لا تقلق على عائشة.

- لا أفهم.

- عائشة وكلّ من كان في الخيمة معكَ منذ قليل في الحفظ والصون.

انتفض أحمد من جلسته، وقفز خارجًا من الخيمة، كادت أن تعرقله حبالها، دخل خيمته فوجدها خالية إلا من المتاع والطعام، الذي أعدّه من قبل مرصوصًا على الأرض، فلم ينقص منه الكثير، طاش عقله، وعاد مهرولاً لخيمة مقبل، حاول أن يمسك بتلابيب الملثم، فدفعه بعيدًا عنه، سقط على الأرض، وقف الغامض في ثباتٍ أمامه، رماه بنظرة حادة وهو يلقي بأوامره:

- ستذهب وترافق الألفي وستنفِّذ ما يُطلب منك، لا تقلق على أهلكَ سيعيشون حياة لم يحلموا بها، عليكَ أن تكون عاقلاً وتفهم ماذا يجب أن تفعل؟

أومأ أحمد برأسه في إذعانٍ بالموافقة، رفع الرجُل لثامه ليظهر له وجهه، تمعَّن أحمد في ملامحه وهو يصيح:

- أنتَ! إنّه أنتَ!

تبسّم الرجل وهو يساعد أحمد على النهوض:

- نعم، إنّه أنا، التقيتُ بكَ من قبل في بولاق، وساعدتُكَ على الخروج من بوابة السعادة، كنتُ أراقبكَ طوال رحلتكَ، اسمي «عز الدين»؛ استدار الصحبة[7] «عز الدين»، عليكَ أن تستعد الآن للرحيل، لا تأكل من الذي

7- المشرف على المطبخ السلطاني والطعام وخدمة السماط. عادةً يكون أمير عشرة.

طهوتـه، وإلا ستذهب فـي نـوم عميـق، هيـا اذهـب وأحضـر ملابسـك، التـي بالخيمـة سـنطلق فـي الحـال.

جرجـر أحمـد قدميـه خارجًـا مـن الخيمـة لا يعـي مـا حـدث، هل هـذا حقيقـي؟ أم أنّـه كابـوس مُخيـف؟ اسـودت الدنيـا فـي وجهـه، عليـه أن ينصـاع لأوامـر هـذا الأميـر، وإلا فَقَـدَ أغلـى مـا يملـك، التقـط بُلغتـه مـن أحـد أركان خيمتـه، دس طرفـي قدميـه فيهـا وعـاد مذعنًـا صاغـرًا لخيمـة مقبـل، يحمـل همـوم الدنيـا علـى كتفيـه.

*****

(8)

بريق خاص

جلس محمد بك الألفي يدخن نرجيلته، تصاعدت شحب الدخان من فمه وهو يهز رأسه موافقًا، لا يعلم أحد لِمَ يهز رأسه، ولا علامَ يوافق هكذا، منذ فترة طويلة وهو قليل الكلام، كثير الصمت، دائم التأمل، داخل هذا الرأس، الذي غزاه الشيب أفكارٌ لا يستهان بها.

أرسل لإنجلترا الرُسل يطلب منهم القدوم كما وعدوه، عليهم أن يبرّوا بوعدهم على الفور؛ فالذئب قد استولى على السُلطة، وكلما طالت المدّة، تمكّن من تثبيت حُكمه، وفرض سطوته، أليس هو من سمّم مساعده الأول ونائبه «بشتك باشا»؟ إنّه هو بكلّ تأكيد، من الذي خدع المماليك وجعلهم يعصون هذا الصامت؟ هو دون شك، الويل لكَ يا محمد علي، سيقتله في يوم من الأيام، سيقطع رأسه ويفرغها من كلّ القاذورات، التي في داخلها، ويحشوها تبنًا ويطوف بها جنوده شوارع، وحارات، وأزقة، وعطفات القاهرة قبل أن يزيّن بها بوابة قَصره.

عـاد مـرّة أخـرى يقلـب صفحـات كتـاب عـن النجـوم والفلـك، كان يقرأ فيـه قبـل قليـل، لكنّ انشـغال بالـه منعـه مـن أن يسـتكمل القـراءة، طـوى الكتـاب، وعـاد مـرة أخـرى لنرجيلتـه، دقائـق ودخـل عليـه حاجبـه يسـتأذنه؛ يخبـره بـأن ناجـي الشـرباصي ينتظـر الإذن بالدخـول، أشـار لـه بالسـماح، لحظـات ومَثُـلَ أمامـه وانحنـى فـي احتـرامٍ شـديد، وقبّـل طـرف ثوبـه، ووقـف فـي خشـوعٍ ناظـرًا لـلأرض، نظـر الألفـي وتبسّـم وسـأله فـي ألفـة:

- هل كلّ شيء جاهز؟

لم يرفع التاجر عينيه وهو يجيب:

- نعم يا سيدي.

- هل تعتقد بأنّ الكميّات كافية؟

- بالطبـع يـا جنـاب البـك، لقـد وُضِعْـتْ بالمخـازن غـلالٌ، وسـمنٌ، وعسـلٌ، وسـكّرٌ يكفـون مـا يقـرب العـام ويزيـد.

اِبتسم في رضًا وهو يردد:

- عظيم، عظيم.

اطمئـنَّ ناجـي عندمـا لمـح بطـرف عينـه ابتسـامة البـك، عـاد الألفـي لنرجيلتـه المطعمـة بالجواهـر، سـحب منهـا نفَسًـا عميقًـا، وتعـارك

الدخان والماء داخل زجاجها البلوريّ، نفث دخانها في الهواء، بعد أن تأكد من أنّ صدره قد فرغ تمامًا من الدخان، عاد للحديث مرّة أخرى:

- هل أحضرتَ الفواتير؟

ركع على ركبته اليمنى، فانحنت ساقه اليسرى خلفه، وهو يمدّ يده ببعض الأوراق نحو البك، وهو يقول بصوت خافت:

- خيركَ سابق يا جناب البك.

التقط الأوراق من يديه ووقّع عليها دون أن يقرأ ما فيها، أعادها إليه، وأشار له بالانصراف، خرج البائع فرحًا بصفقته، هذا هو الأمير المملوكي الوحيد، الذي يدفع ثمن البضاعة، التي يترك للتاجر تثمينها، لا ينظر في الفواتير ويعتبرها قِلّة قيمة أن ينحط لهذا المستوى.

حقًا إنّه تاجر محظوظ؛ لأنّه حظي بثقة الألفي بك، يحسده زملاؤه التجار ومنافسوه، سعوا كثيرًا لإفساد صفقاته، ودائمًا ما كان الفشل حليفهم، ليس لمهارته أو لحُسن بضاعته، أو لتواضع أسعاره، فكلّ شيء بثمن، الكثير من الإكراميات دفعها مسبقًا لرجال البك، المسؤولين عن المؤن، لا يهم فكلّ شيء قد أُضيف على ثمن البضائع التي ورّدها، والأرباح وفيرة دائمًا، وخصوصًا هذا الموسم، فطلبات الأمير هذا العام أضعافٌ مضاعفة عمّا يطلبه كلّ مرة، رجاله في

ازدياد، وقد تعدوا الألف بقليلٍ، يوفر لهم قُوْتَهم وملبسهم ويزوّج الكثير منهم، لولاية مصر بريق خاص، ولها أيضًا ثمن، ولي المكاسب المضاعفة، هكذا حدَّث الشرباصي نفسه قبل مغادرة ديوان الألفي.

وقف الألفي على قدميه، واضعًا يده خلف ظَهْره، قطع الديوان ذِهابًا وإيابًا، الأمور تسير نسبيًا كما يرجو، المؤن توفّرت والرجال ازداد عددهم، إنّه الآن أقوى من محمد علي نفسه، فذاك الألباني لا يزيد عنه شيئًا إلا الشرعية، وقريبًا سينزعها عنه ويعرّيه، هو الآن الأكثر عددًا وعدّة، عليه فقط أن يطمئن على جاهزية رجاله، وبعدها ستكون نهاية هذا المتطفل قد بدأت.

إذا حقق رجاله انتصارًا اليوم في معركتهم في جزيرة الهواء؛ فسيطمئن قلبه، لقد أرسل خير جنوده وعربانه المخلصين، هو لا تقلقه النتيجة، فالنصر شبه محسوم، بالرغم من أنّه لا يأمن مكْر ذلك الثعلب.

في انتظار أيّ خبر عن معركته، التي دبّرها، كان قد سيطر القلق على البك، هي معركة ليست ذات شأن، وتكمن أهميتها بأنّها أول اختبار عملي لقواته ضد قوات نائب السلطان الجديد، في حال انتصروا؛ سيكون له الحق في مخاطبة شيوخ الأزهر، كما أنّها ستكون رسالة واضحة لحليفته إنجلترا بأنّ ثقتهم فيه في محلها.

في قلب هذه الدوامة الفكرية سمع وقْع سنابك خَيل تقترب مسرعة، لحظات ودوّت الطلقات النارية في المكان بشكل عشوائي، خرج من ديوانه يستفسر عن الأمر؛ فأجابه أحد خدمه بأنّ واحدًا من عربان الشرقية قد عاد من المعركة، ويبدو أنّه يطلق النيران احتفالاً بخبر سارّ.

عاد لديوانه، وبسمة مستترة تداعب شفتيه في خجلٍ، جلس فيه متظاهرًا بعدم الاكتراث، ثوانٍ قليلة وانحنى سلمان الطحاوي بجسمه الطويل النحيف، وأنفه الدقيق المقوس والذي يشبه منقار الصقر، ولحيته الطويلة الكثة في احترام واضح أمام أميره، نظر إليه وقطبَ بين حاجبيه وسأله:

- هل أنتَ من كان يطلق النار؟

- نعم يا مولاي الأمير.

- ولِمَ؟

- أُبَشِّرُكَ بالنصر على جنود الألباني.

- أحقًا ما تقول؟

- نعم.

اِبتسم الألفي في ثقة وهو يهزّ رأسه في خيلاء؛ وأشار للطحاوي أن يجلس إلى يمينه، جلس بجواره واستكمل حديثه:

- لقد قتلنا «كوريوسف» يا مولاي.

اعتدل في جلسته، ونظر باهتمامٍ لمحدِّثه، والدهشة تملأ محياه:

- أصدقني القول يا رجُل .

- أقسم لك أنّ هذا ما حدَث، لقد رأيته بعينيّ صريعًا، ترجَّلت من على فرسي بعد أن فرّ جيشه هاربًا، وتأكدت أنّه فارق الحياة.

- لماذا لم تحضر رأسه؟

- سيحضرونها بكلّ تأكيد.

كاد الألفي أن يقفز من الفرح، لم ينتصر رجاله فقط، بل تمكنوا من الفتك بواحد من كبار قادة المتطفل، ذي اللحية الحمراء، صفَّق بيده آمرًا رجاله بأن يحضروا الشربات، والحلوى، والنُّقلُ للطحاوي.

طاحت يد الطحاوي بين الأطباق، وهو يلتهم ما قُدّم له بشراهة، نظر نحو أميره، وتذكَّر عندما كان ذاك الرجُل، الذي على يساره كاشف الشرقية، قبض عليه، وكبّله بالحديد أسيرًا هو وأولاد عمومته، وقتئذ اعتبرهم الأمير خارجين عن القانون، صلبهم على مفترق الطرقات، كواهم بالنار، ركَع على ركبتيه أمامه، يتوسله أنْ

يعفو عنه وعن أولاد عمومته، رق قلبه على البقية، مات من مات من التعذيب، وأمّا من بقي منهم فقد أذعن له دون نقاش، الآن هم من رجاله، الذين يساندونه وهو لا يبخل عليهم بالعطاء.

أثبتوا أكثر من مرّة حبّهم وإخلاصهم له، أخفوه عن أعين الفرنسيين أكثر من مرّة، حاربوا معه ضدهم، والآن يجلس إلى يمينه يتلقى منه كلّ علامات وإشارات الودّ والحبور، بعد أن هدده بالقتل في يوم من الأيام.

*****

(9)

بطل من ألف ليلة وليلة

تزَيَّن القصر الصغير، وما حوله ابتهاجًا بالنصر، عُلِّقت الأعلام على أركانه، وملأت القناديلُ الطريقَ، حتى بابه الرئيسي، فُرشت الأرض بسجاد فاخرٍ، وتراصّت على جانبي الطريق فرق الموسيقى الشعبية، وفرقة موسيقى عسكرية على غرار الفرق العسكرية الإنجليزية، أعجبت الموسيقى العسكرية - بطبولها، وآلات النفخ - الألفي وهو في زيارته لإنجلترا، أعجبه أيضا نظامهم العسكري، الذي لفت انتباهه كثيرًا، مشهد الجنود وتحرُّكهم في صفوف منتظمة أثار دهشته، تدريباتهم الدؤوبة، جديتهم، إصرارهم، جعله يحلم بجيش مثل هذا، عقد العزم على أن يطبّق هذا النظام على جيشه الصغير، نجح في أشياء لكنه أخفق في الكثير.

تحول القصر وحديقته وما حولها إلى أشبه ما يكون بعُرس، أو اِحتفال كبير لوليّ من أولياء الله الصالحين، فلم يكن الغرض من

كلّ هذه الزينة الاحتفال بانتصار أتباع الألفي، وقتلهم «كوريوسف» فقط، بل كان هناك زائر مهم سيصل قريبًا للمرّة الثانية على التوالي، عند زيارته السابقة لم يهتم صاحب القصر كثيرًا بتزيينه كما هو الآن، لكن بعد هزيمته لجند الوالي، فعليه أن يستغل هذا الحدَث، وإبرازه لحلفاء اليوم، ومشاركينه الحكم غدًا.

جلس الألفي في صدر ديوانه بملابسه المزركشة الزاهية، تعبّق المكان برائحة البخور الطيبة، تدلى سيفه الطويل، بمقبضه الذهبي المزين بالجواهر إلى جانبه، وهو في انتظار ضيفه؛ القنصل الإنجليزي في مصر، نبَّهت دقات الطبول صاحب الديوان بوصول ضيفه؛ فوقف، واقترب من باب الديوان للترحيب به، هكذا كانوا يحتفون به في بلادهم، وعليه أن يردّ لهم كرم ضيافتهم.

لحظات وامتلأ الديوان برجال من مختلف الأصناف، وعلى رأسهم القنصل، بربطة عنقه الزرقاء، التي انشغل رجال الألفي بالتفكير في فائدتها، جلس القنصل إلى يمين الأمير المصري بوجه بشوش، سعيد بحُسن استقبال الأمير له، على مقربة منهما جلس مترجمٌ، حلقة وصل بينهما، رغم سفر الألفي إلى إنجلترا ومعيشته هناك أكثر من عام، إلا أنّه لم يتعلم إلا القليل من كلمات الترحيب، التي سرعان ما انتهت، سأل القنصل الإنجليزي:

- وماذا تنوي أن تفعل بعد انتصارك على جنود الباشا؟

- سنتكلم في هذه الأمور بعد العشاء، سفركم طويل ولا بد أنكم جائعون الآن.

- أشكرك سيدي الأمير، لكنكَ تعرف جيدًا أنني لا أستطيع تناول طعامكم؛ هذه أوامر الأطباء.

يعرف الأمير تمام المعرفة أنّ القنصل لا يقول الحقيقة، كلّ ما هنالك أنّه لا يستسيغ الطعام المصري، وأنه رغم طول مدة إقامته في مصر لم يعتد على عاداتهم الغذائية، تذكّر الألفي أيامه في قصور لندن؛ كيف وفّروا له كلّ ما يتمناه، وكأنّه يعيش في قصره في القاهرة، ذلك القصر، الذي لم يستمتع به أكثر من أسبوعين وبضعة أيام، ليحتله «بونابرت» الكافر، ويجعله مقرًا لحُكمه، لا عائد من البكاء على اللبن المسكوب، فقريبًا وبمساعدة هذا الرجُل ومِلكه وجيشه سيعود للقاهرة، ويحكمها من القلعة، ويسترد قصره المنهوب، نظر نحو أحد رجاله وتساءل في حدّة:

- طلبت من قبل طباخًا يجيد الطبخ الإفرنجي، أين هو؟

- بحثنا عنه، وأخيرًا دلّنا عليه مقبل تاجر الغنم يا مولاي الأمير.

- ومتى سيصل؟

- إنّه في الطريق، يومًا أو اثنين بالأكثر ويكون هنا.

نظر الأمير للقنصل وهز رأسه وهو يشير للرجُل، الذي كان يكلمه والابتسامة تعلو شفتيه، لم يدرك الألفي بأنّ المترجم لم يترجم هذا الحديث الجانبي، لم يمنع هذا القنصل من مشاركته الابتسام، هزّ رأسه دليلاً على الرضا، وهو يشير صوب تابع الأمير.

عاد المُترجم مرة أخرى لمزاولة عمله، بعد أن أعاد القنصل سؤاله الأخير، كانت إجابة الألفي حادة وقوية:

- سنزحف نحو القاهرة بكلّ تأكيدٍ، وسيكون انتصارنا القريب سببًا قويًا لجمع أمراء مصر حولنا.

- لو اجتمعت كلمتكم أنت ورفاقك الأمراء؛ ستكونون القوة الأكبر في المحروسة، كما أنّ إنجلترا لن تترككم، سنرسل تجريدة تقف إلى جانبكم.

- هذا لا يكفي.

- ماذا تريدون أكثر من ذلك؟!

- السلطان؛ لو لم نكسب السلطان والباب العالي في صفّنا؛ فكلّ ما نقوم به سيذهب هباءً.

تعالت ضحكة القنصل الإنجليزي وهو يربت على كتف الأمير سعيدًا بذكائه:

- اطمئن، لم نغفل عن هذا، كلّ ما في الأمر أنّ خورشيد باشا ما زال سجين القلعة حتى الآن، اطمئن فنحن لا نترك شيئًا للظروف.

هزّ الألفي رأسه، وأمر بمدّ السماط للضيوف، لحظات وانتقل الجميع لصالة كبيرة بها موائد متوسطة الارتفاع، رصت عليها كلّ أنواع الطعام، في صدر الصالة جلس الأمير، والقنصل، ومترجمه، وأمامهم طبق كبير من الفاكهة، تناول الألفي بعضًا منها، وعرضها على القنصل، الذي قبِلها بودّ، والابتسامة لم تفارق وجهيهما.

بعد أن تناولوا بعض حبات الفاكهة، وقفت الجواري الحسان بالأباريق، ليغسلوا أيديهم، هذا هو التقليد الوحيد الذي يؤثر كثيرًا في القنصل الإنجليزي، شَعَر وقتها وكأنّه بطل من أبطال ألف ليلة وليلة، غسل يديه مع أنّها لم تتسخ من طعامه، تبع الألفي، وعينه معلقة بتلك الجارية الجورجية، التي كانت تصبُّ له الماء منذ قليل.

عادا إلى الديوان حيث أطباق الحلوى في انتظارهما، اعتذر القنصل عن الحلويات، أخرج غليونه وحشاه بالتبغ وأشعله، انشغل الألفي بتدخين نرجيلته، نفث القنصل الدخان باتجاه اليمين بعيدًا عن الأمير الجالس إلى يساره، نظر إليه وسأله بخبث بريطاني:

- دائمًا تصف الفرنسيين بالكفرة، وماذا عنا نحن الإنجليز؟

تـردد المُترجـم الـذي جلـس إلـى يسـار الأميـر، أشـار القنصـل إليـه بأن يترجـم مـا قالـه، لـم ينظـر الألفـي للمترجـم، فقـط نظـر إلـى السـقف وهـو ينفـث دخـان نرجيلتـه بعـد تـردُّد لـم يطـل، تُرجـم السـؤال، نظـر الأميـر نحـو ضيفـه وابتسـامته تضـيء وجهـه وأجـاب:

- أنـا أراكـم أهـل عهـدٍ، نصـارى، ملككـم هـو رئيـس كنيسـتكم، وهـو حامـي الصليـب، علـى نقيـض أولئـك الفرنسـيين الكفـار، الذيـن لا يعتقـدون فـي الديـن، هـم يؤمنـون بشـعارات جوفـاء كالحريـة، والإخـاء، والعـدل، لكـن كيـف سـيتحقق كلّ ذلـك إذا ابتعـدوا عـن الديـن؟!

أعجبت الإجابة القنصل، وانفتحت شهيته ليسأل مرة أخرى:

- وماذا عن مسيحيي مصر؟

- ماذا عنهم؟

- هل هم مثلنا؟

- لا، هم مصريون، يمارسون طقوسهم بحرية.

- رغم كلّ هذه التجاوزات التي تحدث في حقهم.

- عندمـا تحـدث تجـاوزات فهـي تكـون فـي حـق الجميـع دون اسـتثناء المسـلمين والمسـيحيين واليهـود، أعلـم أنّ المصرييـن عانـوا الكثيـر منـا نحـن المماليـك، ومـن الأتـراك، ولقـد حـان الوقـت لأن يأمنـوا

ويعيشوا تلك الشعارات، التي ينادي بها الكفار، تحت مظلة حكمنا الإسلامي.

- وهل تتعهد بحرية المسيحيين؟

- لا.

أفزعت الإجابة القنصل، جحظت عيناه حتى كادت أن تزيح نظارته من على أنفه، واصل الألفي حديثه في تؤدة:

- بل أتعهد بحرية كلّ المصريين.

خرجت الكلمات دافئة من صدر الأمير مغلّفة بالصِّدق، تشتم فيها رائحة إخلاص النية، رغم تلك الابتسامات الخبيثة التي ظهرت فجأة على وجوه أتباع البك، وقف القنصل مستأذنًا في الانصراف، اعتدل الألفي في جلسته وصافحه، متمنيًا له سفرًا مريحًا، واعدًا إياه بأنّ الزيارة القادمة سيجد على سماطه كلّ ما يشتهيه من الطعام الأوروبي الفاخر.

*****

(10)

الحَمَّام

أمـام الواجهـة البيضـاء المزركشـة بخطـوط حمـراء متعرّجـة، وقـف أحمـد بصحبـة عـز الديـن، قبـض عـز علـى رسـغ أحمـد بقـوةٍ، نظـر إليـه والقسـوة تلمـع فـي عينيـه، أشـار لـه بسـبابته محـذرًا، وبإبهـام يديـه الأخـرى سـحبها علـى عنقـه، هـزّ رأسـه فـي إذعـانٍ، وانطلـق داخـلاً مـن البـاب العمومـي.

مرّ من خلال ممرين ضيقين، الإضاءة الخافتة جعلته لا يرى جيدًا خصوصًـا بعـد الضـوء الباهـر، الـذي غـادره منـذ ثـوان خـارج الحمـام، وقـف لبرهـة لتعتـاد عينـاه الضـوء الخافـت فـي الداخـل.

لحظات واعتادت عيناه الرؤية، انطلق داخلاً صالة واسعة مغطاة بالحصيـر، وفـي وسـطها نافـورة مـاء بـارد، جلـس علـى أول مصطبـة قابلتـه، وضـع رأسـه بيـن ركبتيـه وحـاول أن يسـتوعب مـا جـرى،

لكن دون جدوى وذهبت محاولاته كلها هباء، مجرد أسئلة تدور في عقله، وتطفو في فضاء رأسه، لا يعرف أيّ مستقبل ينتظره هو وعائلته، أسئلة كثيرة جالت في خاطره ردَّدها بصوت هامس دون أن يصل لأيّ إجابات، فجأة قفز سؤال جعله يقف على قدميه، أين أبوه من كلّ هذا؟ استدار ليخرج من حيث أتى، ركلتان قويتان استقرتا أعلى بطنه كانتا كافيتان لمنعه من التفكير مرة أخرى بمحاولاته الساذجة للهروب من براثن ذاك الضبع، الذي ينتظره بالخارج، أعادتاه ملقيًا على الأرض، بالقرب من تلك المصطبة، التي كان يجلس عليها، والألم يعتصر معدته، رفع رأسه صوب القبة العالية، التي تعلو النافورة، شَعَر بأنّ حجم القبة الضخم صغيرٌ جدًا مقارنة بجَزعه وخوفه.

خلع كلّ ملابسه، وتسلَّم منشفةً كبيرة، جرّ قدميه ليدخل غرفة دافئة، الأرضية الرخامية البيضاء تشع حرارة لطيفة، جلس على المصطبة الوحيدة، وصوت رقرقة المياه في البهو الرئيس للحمام، يتسلل لأذنه محاولاً أن يُفهِمه ألاَّ فائدة من أيّ محاولة للهرب أو للفهم، ما بيده حيلة، وعليه أن يتبع تعليمات ذاك العز، الذي لم يرَ مِنه إلا كلَّ ذلٍّ وضياعٍ.

تأمل البهو الرئيس للحمام، وكأنّه يدخله لأول مرّة في حياته، وهو الذي اعتاد دخول مثل هذه الحمامات مرتين على الأقل أسبوعيًا، الأرضية الرخامية البيضاء، والتي تتقاطع في خطوط منتظمة مع

بلاطات رخامية سوداء، البخار ملأ المكان حاجبًا الرؤية، مغطس الماء الساخن بفروعه الأربعة، كصليب مائي، القباب الأربعة العالية فوق كلّ فرع، والماء الحار ينسكب منها دون توقُّف، المصاطب التي تحيط بكلّ واحد منها، الرجال ممددون فوقها، أو جالسون عليها، وأيدي العاملين بالحمام الدؤوبة تفرك وتدلِّك أجسامهم، والبقية جالسون في مغاطس المياه يستمتعون بحرارتها.

العرَق الغزير المنساب من جسده قلَّل كثيرًا من إحساسه بحرارة المكان، وسط هذه الغيمة البيضاء، اصطدم به أحد العاملين بالحمام؛ كاد أن يسقط في الماء، أمسكه العامل بقوة، لحظات وكان ممددًا على أحد المصاطب، مستسلمًا ليد البلاّن وهو يكبّس جِلْده برفق، صوت طقطقة مفاصله أشعرته بلذَّة غريبة، عاد بذاكرته لطفولته؛ كلّ يوم جمعة يصطحبه أبوه إلى حمّام شبيه بهذا، كان دائم الهرب من عملية الطقطقة؛ مثَّلت له عبئًا كبيرًا، والكثير من الألم، لكنه الآن لا يشعر بأيّ ألم، وكيف له أن يشعر بهذا، وفي قلبه أضعاف مضاعفه مما لو جلدوه ألف جلدة؟!

تسلَّمه عامل آخَر، فَرَك جسده بليفة خشنة، تفتَّلت أتربة تراكمت على جسده الأسمر أثناء رحلته المشئومة إلى طانتدا، وعودته منها، هل هناك من يستطع أن يفتل حزنه لخيوط رفيعة، ويغسله ويخلصه منها، ويحولها إلى فرح مرّة أخرى؟!

انتهى من حمامه وعاد للغرفة الدافئة مرة أخرى، جلس يستريح وأنّى له الراحة، أو من يدله عليها ويعطيه نصف عمره بالمقابل، القلق ينهش في نفسه كوحش جائع، من أسابيع وعثر أخيرًا على فريسة سهلة، تشبع نهمه الذي لا حدود له.

خرج من الحمام، ولم يجد «عِزًّا» أو جنوده في انتظاره، نظر حوله تأكد أن لا أحد هناك، أطلق ساقيه منطلقًا بعيدًا عن الحمام، ما إن وصل لنهاية الشارع حتى وجده راكبًا حصانه العالي، وحوله جنوده واقفين في انتظاره، وبسمة عابثة على شفاههم، توقف ونظر خلفه، تمنى لو أنّه جرى إلى الناحية الأخرى من الشارع، ترجّل عِز، ربت على كتفه وقال له ساخرًا:

- لو جريت إلى الجهة الأخرى كنتَ ستجدني هناك أيضًا، أخبرتُكَ من قبل أنّك لن تتمكن من الهرب، وإن استطعت، فما عليكَ إلا أن تنسى أمانتكَ، التي استودعتها عندي.

لم يستودعه أيّ أمانة، بل خطفهم، ويدَّعي أنهم في الحفظ والصون، وكما لا يستطيع الهرب لا يمكنه تكذيبه، أطرق رأسه ذلاً وهو يحدثه:

- لم أكن أحاول الهرب، كنتُ أبحث عنكَ.

ربت عز مرة ثانية على كتفه، وسلّمه جوادًا أسودَ ضخمًا، مسك لجامه في حيرة، وهو يتلقى التعليمات الأخيرة:

- ستنطلق نحو الفيوم، على الطريق، ستجد جارك، الذي أوقعك في أيدينا من قبل، سيصطحبك لقصر الألفي، هل سمعت عنه من قبل؟

حدَّث نفْسه، وصدى صوته يجلجل داخله: (أوقعني! ما أنا إلا جرذ صغير في قبضة قط صحراوي موغل في التوحش، يلهو بي قبل أن يلتهمني، الويل لك يا «مقبل» عندما ألقاك، لن أُبقي منك قطعة لحم صالحة للدفن.) ماجت نفسه بالغضب كبركان أوشك على الانفجار، حِمم الكراهية تسري في عروقه، نيران الانتقام أخذت من قلبه موقدًا، دخان الغضب احتل صدره كمِرجل أُحكم غلقه، وتُرِك على النار لأسابيع، لكن هناك من يقف بجواره وينتظر إجابة على سؤاله، رفع رأسه قليلاً محاولاً رؤية وجه عِز قبل أن يجيب:

- بالتأكيد يا سيدي، ومَن في بر مصر كلها لم يسمع به!

- ماذا تعرف عنه؟

- الكثير.. طارد الفرنسيين في كلّ شِبْر من أرض المحروسة، قتل منهم عددًا لا يستهان به، يقولون: إنّه يريد حكم مصر...

قاطعه عزّ في حدّةٍ:

- وهل تعتقد أنّ هذا يحق له؟

استشعر أحمد الغضب في سؤاله، لم يعطه فرصة ليجيب، وانطلق في حديثه:

- هل تعلم أنّه يستعين بالإنجليز الكفار ليعتلي عرش مصر؟ ماذا يستحق من ينتظر العون من أهل الكفر والضلال؟

- الموت.

- وهذا دورك يا بطل.

- أنا؟!

- نعم أنتَ، هذا تكليف من الباشا، وسيكافئك عليه بعد أن تعود.

- ولكني لا أستطيع أن أستعمل السلاح، ولا أجيد ركوب الخيل

ضحك عز حتى كاد أن يقع على قفاه، تمالك نفْسه، وعاد لحديثه الجاد:

- لا تقلق سيدرِّبك أحد جنودي على امتطاء الخيل.

- وماذا عن السلاح؟

عاد عز للضحك بشكل هستيري، تمالك نفسه وعاد لحديثه:

- لا سلاح لمصري، هل جننت؟!

- كيف سأقتله إذًا؟

- عندما تقابل مقبل؛ سيخبرك بكلّ شيء، سأصطحبك الآن لساحة التدريب، ستذهب للفيوم كما أخبرتك من قبل، ستجده في انتظارك على الطريق، لا تحتاج لأن أذكّرك، لا فائدة من الهرب حتى لو تمكنتَ، فمصيركَ القتل بالخازوق عند تل العقارب، وأمانتكَ ستُباع في سوق النخاسة.

كانت أوامر عز صارمة، وتهديداته واضحة، كما أنّ محاولات أحمد الفاشلة في الهرب تدفعه لأن ينصاع لكلّ أوامره دون تفكير، هو لم يمسك سلاحًا من قبل، فكيف له أن يقتل رجُلاً، احتار في قتله الفرنسيون، وخدع الأتراك، وتغلب عليهم أكثر من مرة؟! ماذا سيحدث لو لم يتمكن من قتله؟ هل سيجد له عز والباشا العُذر؟ ولماذا يريد الباشا قتله؟ لِمَ لا يتفق معه ويرتاح ويريحه؟ ترى ماذا سيحدث له لو انكشف أمره للألفي؟

أسئلة لا إجابات لها، في كلّ الحالات ينتظره الموت، بطريقة أو بأخرى، لو لم يحالفه الحظ، انطلق في طريقه نحو المجهول، والموت يسيطر على كلّ تفكيره.

*****

(11)

طرف الثوب

فـى ليلـة مقمـرة حجـب السـحاب ضياءهـا، عبـروا ممـرًا عميقًـا مكسوًا بالعشب المخملي، تعانقت من فوقه أغصان أشجار العنب، حاجبة بقايا ضوء القمر الفضي، المتسلل من بين نتف السحاب، غافلت السحب للوصول لوجوهٍ أنهكها طول السفر، وصلوا تحت جُنْح الليل، يقودهم أحد الآغوات الغلاظ، عند ساتر الحريم، رفع الآغا الستار، وأشار لهم بالدخول.

تقدمت لالا زار نحو الضوء المنبعث من داخل الحرملك، وقفت مشدوهة تنظر إلى الثريات المتدلية من السقف المزين بخطوط متداخلة متشابكة في وحدات مكررة، دفعها الآغا برفق لتفسح الطريق لرفيقاتها، توقفت بعد خطوة أخرى، وهي تتأمل البُسُط الحريرية بألوانها البهيجة، والمرصوصة بنظام بديع على أرضية الغرفة، دفعها مرة أخرى، فتقدمت لخطواتٍ، وتعلقت عيناها

بالستائر بلونها الأخضر بدرجاته المختلفة، والتي غطّت النوافذ المرتفعة، تمنّت لو أنّها امتلكت نصف واحدة من تلك الستائر الكثيرة؛ لتمكّنت من حياكة فستان رائع لابنتها عائشة، دفعها الآغا للمرة الأخيرة، كادت على إثرها أن تسقط على الأرض في هذه المرّة، لحظات وكانت فاطمة وأمّها تنظران في دهشة إلى ما أثار دهشة رفيقتهما من قبل.

توقفت عائشة بالباب رافضة الدخول، وضع الآغا يديه على ظَهْرها ليدفعها، قبل أن يتمكن من ذلك؛ كانت الشتائم تنهال عليه كرِمال عاصفة، هبت فجأة في صحراء لا حدود لها، كيف تجرّأ أن يضع يديه عليها؟! صراخها أفاق أمّها، وأختها، وبنت خالتها من تأملاتهن لألوان الحيطان، لم ينبّه صوتها العالي أقاربها فقط، لكنه استدعى بعض الحراس من داخل الحرملك على وجه السرعة، أحاطوا بهم وقد أشهروا سيوفهم، ووضعوها على أعناقهن، ليصمتن جميعًا وقد خلع الهلع قلوبهن.

في صدر القاعة، وفي أكبر المجالس المنتشرة، وعلى أعلى مرتبة، جلست «جلفدان هانم»، وقف الجميع أمامها في صمت تامٌ، نظرت نحوهن بامتعاضٍ، وأقفلت أنفها، وأشارت لهن بالانصراف.

دفعهنّ الآغوات خارج القاعة في اتجاه باب ضيقٍ إلى يسار القاعة، ممر ضيق خافت الضوء مشيَن يتقدمهنَّ أحد الأغوات، قادهنَّ باتجاه درجات قليلة، نزلنها ليجدن دهليزاً لا يزيد اتساعه

عن نصف المتر، على جانبي الدهليز غرف أبوابها خشبية سميكة، فتح الآغا غرفة لها باب منخفض، دخلن دون أن ينبسن ببنت شفه، أغلق الآغا الباب ورحل تاركًا إياهن في غرفة لا يتعدى طولها مترين، ويقل عرضها عن ذلك قليلاً.

على أرض الغرفة الخالية تمامًا من الأثاث تجمعن بجوار بعضهن، تسلل ضوء القمر عبر قضبان شباكها المرتفع الضيق، انعكست أشعته الفضية على أجسادهن المتعبة، فحوّلهن إلى تماثيل من شمع لا روح فيها، اقتربت فاطمة من عائشة وهمست لها متسائلة:

- لماذا أمسكت العجوز أنفها عندما اقتربنا منها؟

نظرت عائشة إليها بنظرة حادة، كادت أن تخلع قلبها من صدرها، قررت فاطمة الصمت، لكن بعد لحظات اقتربت منها أكثر، وهمست لها:

- شمّيني، هل رائحتي كريهة؟

دفعتها عائشة بقوة بعيدًا عنها وهبّت واقفة في وسط الغرفة وبدأت في الصياح:

- عن أيّ رائحة تتحدثين أيتها البلهاء؟ ألم تشتمي رائحة الذل عندما عرضونا في سوق النخاسة طوال النهار؟ ألم تصل لأنفكِ الغبي هذا رائحة المهانة عندما عاملونا كسبايا ونحن الحرائر؟ من

فيكن شعرت بالغثيان والرجال يقلِّبون فينا كبضاعة رخيصة؟ أنا لن أقبل بهذا الذل أبدًا.

اندفعت عائشة نحو الباب، ودقت عليه بعنف، وهي تصيح على الحارس:

- أين اختفيت أيّها الآغا الفاقد لرجولتك؟ افتح لنا لنخرج، نريد أن نعود لديارنا، افتح أيّها الخصي.

لحظات وكان صوت السياط في الخارج يشق سكون الدهاليز المظلم، وصوت الحارس الآتي من أعماق القهر يردد مهددًا:

- نَمْن وإلا لن تريْنَ النهار أحياءً، السيدة تعاملكن على أنكن ضيوفها حتى الآن، حذاري من أن ينقص صبرها قيد أنملة.

رغم أنّ صوت الحارس رفيع خالٍ من أي صفات الرجوله؛ لكنه كان ممزوجًا بغضب السياط، وهذا كافٍ بأن يرهب كلّ أذن وصل إليها، شدت لالا زار ابنتها وأجلستها بجانبها، وهي تحاول أن تُهدِّئ من غضبها، الذي انقلب إلى خوفٍ بسبب تهديد الحارس، وضعت عائشة رأسها على صدر أمّها، وانخرطت في بكاء حارٍّ، علا عويل نفيسة وهي تنادي على ابنها، الذي فقدهنَّ وفقدنه، خفَت صوت البكاء والعويل تدريجيًا، انتظم نفَس الأربعة، وكِدْنَ أن يسقطن في بئر النوم، لولا أصوات جلَبة اقتحمت الغرفة، فزعت النساء، ووقفن يحتضن بعضهن، محاولات طمأنة الأخريات، والاطمئنان بهن.

تعالـت الجلبـة، وكأنّ شـخصًا مـا يطـرق الحديـد الموضـوع علـى الشباك المرتفع بقضيـب معدنـي، ثـم يسمعنَ صوت وقْع أقـدام آتيًا مـن الدهليـز، ثـم طرقـات علـى البـاب، وبعدهـا تعـود الطرقـات علـى حديـد الشـباك.

سـيطر الخـوف عليهـنّ، بـدا لهـنّ أنّ قبيلـة مـن العفاريـت تسـكن المـكان، وهـنّ قـد احتللـن مسـكنها، وأصحـاب المـكان وسـكانه لا يريـدون شريك، انكمشـن علـى أنفسـهن، وردّدن مـا يحفظـن مـن قصـار سـور القـرآن، لكـن هيهـات فلـم ينتـهِ رعبهـن، ولـم يعُـد لهـنّ الهـدوء كذلـك.

بعـد الفجـر بقليل توقفت الضوضـاء، وانفتـح بـاب الغرفـة، نبّه صرير البـاب النسـوة للبـاب المفتـوح نصفـه، قفـزن هاربـات خارجـات مـن سجنهن متجنبات لعنات الجان، هكذا قضين ليلتهن الأولى ما بين رجاء ورعـب وسـهاد ودعـاء بأن ينجيهن الله من يد سـاكن المكان.

قادهـن أغـا شُـرَعب لحمـام القصـر، وقـف خارجـه؛ تقـدَّم النسـوة الأربعـة لداخلـه بعـد سـاعتين خرجـن فـي ملابـس لـم يخطـر ببالهـنّ أنهـنّ سـيرتدينها يومًـا، علـى رؤوسـهن طرابيـش زاهيـة اللـون، ملفـوف حولها مناديـل غامقـة مثبـت عليها مـن الجهة اليمنـى مشـابك فضيـة محلاّة ببعـض الفصـوص الزجاجيـة البراقـة، أما شرابية الطربـوش كانـت مـن الحريـر الأزرق، والـذي تجمـع فـي الجهـة اليسـرى مـن الـرأس.

ارتدت الفتاتان صدريتين طويلتين، وسروالين من قماش منقوش عليهما أزهارًا كبيرة ملونة، على وسطهما شدّا شالين من الكشمير المقصّب، أظهر الحمّام جمال بشرتهن البيضاء المشربة بالحمرة، تهادت السيدتان في عباءتين فضفاضتين من الموسيلين، مشقوقة من الجانبين، تحتهما سروالان من الحرير الأحمر، على وسطهما شال من الحرير زاهي الألوان، معقوص من الجانب الأيسر، منسدل من الجانب الأيمن.

أعادهنّ الحارس لمجلس جلفدان هانم، بعد أن أكّد عليهن بأن لا يقتربن منها، عليهن الوقوف على بُعد مترين على الأقل، بعد أن يُظهرن لها فروض الولاء والطاعة.

وقفت جارية تصبُّ الماء على يد جلفدان هانم من إبريق ذهبي مطعم ببعض الأحجار الكريمة الزرقاء والحمراء، سلمتها جارية أخرى واقفة بجانبها منشفة مطرزة بخطوط ذهبية على أطرافها، رفعت جارية ثالثة صينية كان عليها بواقي إفطار الهانم، حملت جارية رابعة الطست الذهبي، وانصرفن جميعًا، اقتربت نفيسة من الهانم، وقبّلت طرف ثوبها كما أخبرهن الحارس، وعادت لتقف خلف النسوة، تقدمت لالا زار وقدّمت فروض الولاء والطاعة، تقدّمت بعدها فاطمة، وفعلت كما فعلت خالتها وأمها، انتظرت الهانم تقدُّم عائشة، فتسمّرت في مكانها، ووقفت كتمثال لا يتحرك، دفعتها خالتها برفق لتقبّل طرف ثوب الهانم، نظرت عائشة نحوها

وهزّت رأسها رافضة، احمّر وجه الهانم من الغضب، صفّقت؛ فمَثُل في لحظة حارسان أحدهما يبدو ضعيف النظر، بعينَين ضيقتَين، والآخر طويل مخيف بعينين حمراوَين، ذكرتهن بقصصهن الخرافية عن الغول، أشارت لهما نحو المتمردة، قبضا عليها، فحاولت التخلص منهما وهي تصيح، لا مناص أوامر الهانم كانت حادة وقاطعة:

- لا أريد أن ألمح وجه تلك الشقية بعد ذلك، ستبقى في المطبخ حتى تصلكم أوامر أخرى.

سحب الحارسان عائشة وهي مستسلمة لهما، توسلت لالا زار الهانم بأن تعفو عن ابنتها بحجة أنها ما زالت صغيرة، ولا تدرك ما تفعل، ذرفت الدموع تحت قدميها، توسلت الخالة سيدة الحرملك، التي أشارت لهما بيدها بأن يصمتا، اتكأت على جانبها الأيمن في انتظار نرجيلتها، لحظات وكان المبسم المطعم بالأحجار الكريمة بين شفتيها، ابتسمت لهن وهي تنفث الدخان نحوهن، خرجت الكلمات من فمها مخلوطة بدخان النرجيلة:

- أنتن ضيوفي، ستمكثن هنا لأجَلٍ غير معلوم، واجب ضيافتكن لمدة ثلاث ليال، مرت واحدة وباقي لكُنّ اثنتان، بعدهما ستعملنَ هنا في الحرملك.

أشارت نحو فاطمة، وسألتها:

- أنتِ يا صغيرتي، ماذا تجيدين؟

ابتسمت نفيسة وهي سعيدة بأن الهانم نادت ابنتها بصغيرتها، وقبل أن تردّ الصغيرة، بدأت أمّها في الكلام:

- إنّها ابنتي فاطمة، تجيد...

قاطعتها الهانم في حدّةٍ وبصوت جافٍّ:

- لم أسالكِ أيّتها العجوز الشمطاء، لا أحد ينطق أو يتحرك هنا إلا بإذن مني، ماذا تتقنين يا صغيرة؟

- سيدتي أنا أجيد الطهي والخَبْز و...

- لا، هذه أعمال الخرقاء، التي رفضت أن تتشرف بتقبيل طرف ثوبي، هل تجيدين شيئًا آخر؟

- نعم يا مولاتي، أجيد الغناء والرقص.

انفرجت أسارير الهانم، وأشارت لها بمبسم نرجيلتها:

- حقًّا! سأسمعكِ قريبًا، لو أعجبني غناؤك سأمنحكِ هدية قيمة، وأنتما ستقفان على باب الحرملك من الداخل لاستقبال الضيوف، ستبدآن عملكما بعد انتهاء فترة ضيافتكما، أما أنتِ يا صغيرة سأسمعكِ اللّيلة، والآن يمكنكن الانصراف وتناول فطوركن، لابد أنكنّ جائعات.

توقفت نفيسة وفي عينيها رجاء، لاحظت الهانم ذلك، نظرت نحوها وسألتها:

- ماذا تريدين؟ هل تريدين عملاً أسهل من استقبال ضيوفنا؟

- لا سيدتي، لي سؤال وأدعو الله أن يكون جوابه عندك.

- ما هو؟

- لي ابن اسمه أحمد، هل تعلمين عنه شيئًا؟

- اطمئني، هو بخير، كل ما أعرفه أنّه سيعود سالمًا بإذن الله، عندما يعود، سيحضر ويأخذكن جميعًا، والآن دعيني أكمل نرجيلتي.

ذهبن خارج المجلس إلى إحدى الغرف المفتوحة عليه، جلسن حول صينية ليأكلن، وهدأت قلوبهن واطمئنَنَّ على أحمد ولو مؤقتًا، بينما اشتعلت نار حرقتهن على عائشة، الجوع يقرص بطونهن، والفراق يغص قلوبهن، وسيدة تستمتع بنرجيلتها لا قلب لها ولا تشعر بوجدهن.

*****

(12)

الدرويش

وقف أحمد فوق تلّة من الرمال من على بُعد تعالت سُحُب من الأتربة، كلما اقتربت السُحُب، ارتجت الأرض تحت قدميه، نظر نحو الأفق البعيد منتظرًا وصول الألفي وسط جنوده، تأكد من سلاحه فرصاصة واحدة لا بد أن تكون كافية لإنهاء مهمته، عاد لفرسه الأشهب، ربت على جبينه ومسح على غُرته برفق، عليه أن يكون هو الآخر مستعدًا ليهرب به، فلو تمكنوا منه لأذاقوه العذاب، حتى يصبح الموت أمنية عزيزة صعبة المنال.

رجف قلبه وجف حلقه عندما مَرَّ في مخيّلته ما قد يحدث له إذا ما تمكن منه رجال الألفي، عاود النظر لفرسه ففكر في العودة، تراجع على الفور عن تلك الفكرة فعائلته في قبضة من لا يرحم، تداعت الأفكار في عقله، لماذا لا يذهب ويعترف للألفي بمهمته، التي أتى من أجلها؟ وقتها سيساعده لاسترجاع ذويه، تراجع عن فكرته بسرعة لربما قتله الجنود قبل أن يصل لسيدهم؛ أو يأمر بقتله بعد أن يعرف أبعاد المؤامرة، ما هو مصيرهم إذا حدث هذا؟

مـع اقتـراب صهيـل خيـول الألفـي، عـاد إليـه وعيـه، تأكـد مـن أن فرسـه فـي مأمـن بعيـد عـن أعيـن الجيـش القـادم، انبطـح علـى الأرض، ثبـت بندقيتـه أمامـه وظَـلَّ سـاكنًا فـي انتظـار مـرور هدفـه.

طـال انتظـاره وهـا هـو موعـد خلاصـه قـد اقتـرب، صـوت دبيـب الجيـش وهرجـه يعلـن عـن وصولـه، انتبهـت حواسـه وأصبـح كلّ شـيء واضحًـا أمامـه، دقائـق ويعـود بفرسـه لعـز الديـن، سـيمنحه الباشـا عطيـة كبيـرة، سـيَبْني بيتًـا كبيـرًا، سـيتزوج عائشـة فـي أقـرب وقـت، سـيتاجر فـي إحـدى الوكالات الكبيـرة، وربمـا فـي يـوم مـن الأيـام سـيكون مـن أعيـان المحروسـة، سـيجلس مـع كبـار علمـاء البلـد، سـيدعوهم إلـى بيتـه، ويحتفـي بهـم، وسـيكون لـه حرملـك كبيـر، سـينجب كلّ عـام طفـلاً وربمـا طفليـن، وسـتبقى عائشـة هـي الملكـة علـى عـرش مشـاعره وسـيدة الحرملـك.

علـى حيـن غـرّة رفـع فرسـه ساقيه الأماميتيـن وصهـل، قبـل أن ينظـر نحـوه كان هنـاك مـا يزيـد عـن خمسـة سـيوف فـوق رقبتـه، وأقـدام كثيـرة تعتلـي ظَهْـره، شَـعَر بوخـز فـي رقبتـه، ويـد تهـزّه بقـوة، ارتعـدت أوصالـه، واعتـرى الخـوف قلبـه الواجـف، أغلـق عينيـه منتظـرًا السـيوف أن تقـوم بدورهـا.

فتـح عينيـه علـى مهـل، وجـد لحيـة طويلـة؛ ملابـس باليـة قـذرة، أحـد دراويـش السـيدة نفيسـة غـرز أظافـره فـي عنقـه، وهـزّه بعنـف يوقظـه لاقتـراب موعـد صـلاة الفجـر، تلفـت حولـه وهـو يلهـث، حمـد اللـه علـى أنّـه كان مجـرد حلـم، توافـد المصلـون إلـى سـاحة المسـجد حيـث قـرر أن يقضـي ليلتـه؛ تبـركًا بهـا لتحميـه فـي مهمتـه كمـا تحمـي القاهـرة.

توضأ وهو لا يصدق نفسه بأنّه في مأمن من سيوف الألفي، ارتفع صوت المؤذن بتكبيرات الأذان، رفع يديه وهو واقف أمام المحراب يدعو الله بأن ينجيه ويعيده سالمًا هو وأهله، سالت الدموع من عينيه وبلل الفرش السندسي ولسانه لم يتوقف عن الدعاء، هزته يد الدرويش المتعرقة، مسح دموعه ونظر إليه بعينين أجهدهما الرمد اختبأتا خلف حاجبين تهدلا كستارتين تآكلان من شمس الصيف الحارقة، صاح في وجهه:

- قل يا ربّ، شيء لله يا طاهرة.

هزّه الدرويش مرّة أخرى وهو ينهره:

- قل يا ربّ.

- يا ربّ ما لي سواك، يا ربّ أنت تعلم ما لا أعلم، وعلمك بحالي يغني عن سؤالي.

خرج الدعاء منه صادقًا مخلوطًا بدموع الرجاء، لا حدود بينه وبين عرش الرحمن، تمتم الدرويش, وذهب بعيدًا، وهو يردد:

- شيء لله يا طاهرة، مدد يا آل البيت مدد.

صلّى ركعتيّ السّنة، وانخرط في البكاء، وهو ساجد بين يدي خالقه، شَعَر بمدى ضعفه، أدرك ضآلته وسط الكون الفسيح، دعا ربه بكلمات لم يشعر بها وهي تخرج من فيه، خرجت من قلب يشعر باليأس، واستبدّ به الخوف، تذكّر أنّه لا يقنط من رحمة الله إلا الكافرون، ولا خوف إلا من ربّ

العالمين، لم يتوقف سيل دموعه، اعتدل وقرأ التشهّد، وسلّم وأنهى صلاته، انتظم في الصف، وأدّى فرضه، وختم صلاته، وانطلق في طريقه مودِّعًا السيدة نفيسة خلف ظَهره، راجيًا أن تكون عونًا له في أيامه القادمة.

ركب فرسه، ونظر نحو حارسة القاهرة، ثم صوْب السماء، التي بدأت تلمع قليلاً بضوء النهار، داهمه الوقت، وعليه الإسراع ليعبر النيل، مسح على رقبة حصانه واثقًا بأنّه سيصل في موعده، وعلى حين غرّة ظَهَر له الدرويش بعينيه الغائرتين، أمسك لجام الفرس بقوة واقفًا أمامه، مانعًا إياه من الانطلاق، سحب أحمد بعنفٍ، تمالك نفسه بشق الأنفس، ليبقى ثابتًا فوق الجواد، أفلت الدرويش اللجام، انطلق أحمد بعيدًا، من خلفه طارده صياح الدرويش:

- لا تؤذِ أحدًا، وإن آذوك فإنّ ربكَ منتقم، لا تؤذِ أحدًا، لا تؤذِ أحدًا.

تلاشى صوت الدرويش، وغاب عن نظره، ابتسم ساخرًا من نصيحة الدرويش، الذي لا يعي النار المتقدة في صدره، ولا يدرك مدى الرهبة المسيطرة عليه، الخوف هو وقود القسوة، وقسوة القلوب هي علة كل شرورو هذا العالم، نظر أمامه وانحنى محفزًا الحصان ليطوي الأرض طيّا .

ترجّل أمام الميناء، قبض على يده اليسرى، ورفعها للأعلى بمساواة كتفه كما أمره عزّ الدين أن يفعل، كإشارة متفق عليها، تقدم باتجاهه جنديان، تسلّم أحدهما الحصان، وأخذه بعيدًا، قاده الآخر نحو المركب، لم ينبس بأي كلمة، وبقي وجهه عابسًا وهكذا كانت التعليمات.

ظهر قرص الشمس على استحياءٍ، انعكس ضياؤه على صفحة النيل، لم يبدّد النور مخاوفه، على العكس أظهرها جليّة أمام عينيه، عليه أن ينتقم من جاره الوغد، سيقتله بكلّ تأكيد، ثم ينطلق نحو أمير المماليك الأكبر، يتسلل إلى فراشه، ويخمد أنفاسه، ويعود للباشا ليتسلم جائزته، وليسترد عائلته، ولربما وجد بعد ذلك من يدفع له ليغتال الباشا.

على الجانب الآخر من شاطئ النيل، قبض على يده اليمنى ورفعها للأعلى، تقدم منه جندي، مسرعًا أعطاه ملابس جندي مملوكي وسيف، هكذا بدأت الخطة تتضح له، سيتنكّر في زيّ جندي من جنود الألفي يغافله ويطعنه، ثم يفرّ مسرعًا للباشا.

قاده الجندي ليس بعيدًا عن شاطئ النيل، أعاد له حصانه، وهمس له:

- اركب هذا، واطلِقْ له العنان، قبل أن تدخل أول بلدة تمرّ عليها غيّر ملابسَك، وعلّقْ سيفَك، لا تتحدث مع أحد في الطريق، هناك من ينتظرَك على الطريق، أنصِتْ له، وكُنْ مطيعًا.

ربت الجندي على عنق الحصان وأضاف:

- اطمئنْ فهو يعرف الطريق.

هزّ أحمد رأسه موافقًا، قفز فوق جواده، وانطلق تاركًا خلفه الجندي، سار به موازيًا لشاطئ النيل، كان هواء الصباح المنعش يداعب بعض خصلات شعره الأسود الناعم، والتي خرجت من تحت غطاء رأسه المزركش،

أنعش الهواء نفَسه قليلاً، عليه أن ينفّذ ما يُطلب منه، حتى يستعيد أهله، جذوة غضبه على مقبل متقدة، حاول أن يحسم أمره، ما زالت رحلته في بدايتها، وعليه أن يقرر، هل ينتقم من ذلك الوغد أم لا؟ أم يؤجل هذا حتى يسترد ما فقده؟

ما زال في أول الطريق، وها هي أكواخ الفلاحين تلوح له من بعيد، تبدو له كأشباح خرافية مستترة خلف ضباب الصباح، أوقف رفيق سفره وترجّل من عليه، غيّر ملابسه كما أُمر من قبل، نظر في صفحة النيل، هاله ما رآه جندي مملوكي في كامل هيئته، لو لم يكن يعرف نفسه جيدًا لفرَّ هاربًا من وجه هذا الأمير.

تأمل القرية التي لاحت له بعض تفاصيلها من قبل، نخل باسق يحاول اختراق السماء، ينظر في غرور إلى أبراج الحمام المستكينة في هدوء تحته، أسراب صغيرة من البط تسعى على طول النيل، درجات حجرية غير مستوية تنتهي بمصطبة صغيرة مغمورة تحت مياه النيل، بجوارها على الشاطئ مُصلّى صغير مفروش بقش نظيف، ظللت عليه شجرة صفصاف، كامرأة عجوز تغسل شعرها في مياه النهر المقدس، أكواخ صغيرة متناثرة كقروح انتشرت على وجه زوجة قبيحة فَازداد نفور زوجها منها، البؤس يبدو واضحًا عليها، كيف تعيش أسرة كاملةٌ مع حيواناتها في مثل هذا المكان الضيق؟! تبسّم عندما تذكَّر أنّه عاش مع عائلته، وحمارهم في منزل لا يفرق كثيرًا عن هذه الأكواخ، كانت رائحة البيت مقرفة، تثير الغثيان، لكنّ حُبّه الشديد لحماره جعله يتغاضى عن أيّ رائحة، لا بد أنّ أصحاب تلك البيوت أيضًا يحبّون حيواناتهم، ولا يشعرون باشمئزاز من رائحتها.

سار بفرسه على مهل متأملاً الحقول المكسوّة بالخضرة، أرض طيبة تمنح فلاحيها خيرها ثوابًا لعملهم ومجهودهم فيها، يناضلون طوال نهارهم فيها، يكدحون آملين أن يرزقهم الله من حلاله، ويسعون نحو عملهم بأجسادهم ووجوههم السمراء النحيلة، عيونهم السوداء الغائرة، تنم عن اعتلال صحتهم وفقر معيشتهم، يجرون خلفهم أبقارهم وجواميسهم.

لاح لهم الأمير المملوكي من على بعد، يسير بجواده على مهل، فدَبّ في قلوبهم الرعب، تُرى ماذا سيفعل معهم هذا الأمير؟ هل سيسلبهم حيواناتهم بعد أن يجلد ظهورهم، ولربما يقتل من يقف في طريقه، قد يهجم على منزل أحدهم ويغتصب من فيه من النساء، سيسبي بناتهم ويبيعهن في أسواق النخاسة، أو يضرم النار فيه على من بداخله إذا ما امتنعوا عنه، احتاروا في أمرهم؛ فرَّ واحد منهم وقفز في النيل راكبًا على ظهر جاموسته مبتعدًا عن طريقه، آملاً أنّه لم يرَه، واختبأ أحدهم متسلقًا شجرة حاملاً عنزته فوق كتفيه، تسمّر الباقون على جانبي الطريق يلتهمهم الهلع كما تلتهم النار الحطب.

*****

(13)

الرمال المتحركة

توقف أحمد عن المسير، ما رآه أعاد لذاكرته ما كان يحدث عندما يهاجم أحد أمراء المماليك وجنوده حارتهم، حيث يدوّي العويل والصراخ في كلّ مكان، ويهرول التجار لغلق محلاتهم، ومن لم يتمكن تصبح بضاعته مباحة، الكلّ مُعرّض للسلب والنهب والقتل، لا رحمة ولا تهاون فيما أتوا من أجله، لا بد أنّهم يشعرون الآن بما شعر به من قبل عندما داهم الجنود حارتهم.

وكز حصانه وانطلق بعيدًا، أخذ قليلو الحيلة خلفه ينظرون إليه وهم في حالة من التعجب، لأنه لم يهاجمهم، لم ينظر نحوهم، لأنّه لا يستطيع أن ينظر في عيون يملأها الخوف، رغم أنّه وبكلّ تأكيد يتمنى أن يتمتع بهذه النظرات في عين مقبل.

مَرَّ في طريقه على العديد من القرى، لم يتوقف أو يبطئ من سرعة حصانه، لا داعي لتكرار ما حدث من قبل، يكفي ما شعر به أهل محطته الأولى، ظَلَّ هكذا حتى لاح له بحر من الرمال الصفراء لا آخر له، اطمئن بأنّه لن يزعج أو يخيف أحدًا الآن.

طوال طريقه والفرس يسرع في طيّ رمال البيداء، داهمته سحب سوداء من ذكريات طفولته، مرت حياته القصيرة أمامه كخيالات، وما ينتظره في مستقبلٍ مبهم الملامح، كرياح خماسين حجبت الرؤية عنه، طفولة قضى معظمها في عريّ تام، فلم يجد ما يدفئه في برد الشتاء إلا حضن أمه، وغطاءٌ قديمًا خشنًا من الصوف، لم يكن هناك ما يحميه من شمس الصيف الحارقة سوى ظِلِّ البيوت في الشوارع، لم تمكّنه ظروفه من أن يلتحق بكُتَّاب الحي؛ ليتعلم القراءة والكتابة، وبعض قصار السور من القرآن، تمنى أن يذهب إلى هناك ولو لمرّة واحدة مع مقبل، الذي يريد قتله الآن، هل يريد ذلك انتقامًا منه لأنّه تمتع بالقليل من العِلم والملابس وأشياء أخرى حُرِم هو منها في طفولته؟ أم لأنّه السبب في ضياع حاضره ومستقبله الآتي؟

أيذهب العمر هباءً؟ أحلام تخدرنا حتى لا نشعر بوطأة مرارة واقعنا، تخيلات تحول صحاري الحياة مروجًا خضراء، لنصحو على الحقيقة، درب طويل لن ينتهي مهما أسرعنا، وعمر قصير

مهما طال، لم يجد جوابًا وافيًا لسؤاله، حقًا إنّ الإنسان، الذي لم يَعِش ماضيًا يشرِّف به، لا حقّ له في حاضر ينعم به، أو مستقبل يأمل فيه.

التهبت الشمس في السماء، وانعكس ضياؤها وحرارتها على الرمال المحيطة به، كثبان من الرمال تعلو وتهبط حوله، وأحجار كئيبة منتشرة في كلّ مكان، لا شيء يلفت الاهتمام، خصوصًا بعد أن صمّ الهواء أذنيه، تخيّل أنّ صراخ طفل يصل إلى مسامعه، هل يهذي؟! ربما، أو من الجائز أنّه سراب سمعي تسرّب إلى نفْسه في هذا الفضاء الموحش.

عاد الصراخ يخترق سمعه مرّة أخرى، وليس بسراب أذن، أوقف فرسه وتلفت حوله، فلا شيء إلا الرمال وكثبانها، عاد الصراخ يخترق أذنيه، يأتي من أمامه على اليسار، اتجه نحو الصوت، تخيّل أن النداهة هي من تصدر هذا الصوت، تمكن الهلع من نفْسه، توقف عن المسير، نظر حوله مرّة أخرى، لا شيء لا أحد لا وجود لأيّ جنس من البشر في هذه الصحراء الشاسعة.

تذكّر أوامر الجندي، الفرس يعرف المكان، وسيوصله دون توجيه منه، يجب أن لا يتحدث مع أحد حتى يصل إلى المكان المنتظر، عليه أن يطيع الأوامر حرفيًا حتى يُكمل مهمته، لا يمكنه تجاهل النداء النابع من بين الرمال مهما كانت

العواقب، الصراخ واضح ويستطيع أن يميّزه، إنّه صراخ وبكاء حار لطفلٍ، ربما يكون هناك خلف هذه التلّة الرملية المرتفعة، لا ضير أن يذهب ويلقي نظرة، لو لم يجد شيئًا؛ سيترك العنان لفرسه ينطلق حيث يعلم.

ببطءٍ شديدٍ وحذرٍ صعد التلة، زاد وضوح الصوت، طفل يبكي من الألم، وقف عند قمة التلة، ونظر، فوجد - ليس ببعيد عنه – طفلاً، مغموزًا نصفه السُفلي في الرمال، سمع من قبل سيرة عنترة بن شداد حين كادت أن تلتهمه الرمال المتحركة عندما كان يُحضر مهر محبوبته عبلة، ستلتهمه الرمال في باطنها إذا ما اقترب، سيغوص فيها حتى يختفي، الويلُ لتلك الرمال التي تبتلعنا أحياءً!

نظر الطفل نحو أحمد بعينين أرهقهما البكاء، وجهٌ صغير سالت الدموع من مقلتيه، فشقّت أودية من الطين وسط رمال تعفّرت بها وجنتاه، أشار إليه أن اقترب، ربت على صدره راجيًا أن ينقذه، توقف أحمد والدهشة تملأ عينيه، كيف لم تبتلع الرمال هذا الصغير؟ وقتها أدرك أن هذه مجرد رمال عادية، وليست متحركة، ترجّل من على فرسه، واقترب من الصغير، أمسكَ الطفل بسرواله الفضفاض متوسلاً أن يخرجه من الحفرة المردوم فيها نصفه السفلي.

لـم يـدرك أحمـد حتـى الآن سـبب دفنـه بهـذه الطريقـة فـي الرمـال، أو الداعـي مـن وجـوده فـي مـكان موحـش مثـل هـذا، هـل تـاه مـن والديـه مثـلاً؟ أو ربمـا تخلّـف عـن قافلـة مـرّت مـن هـذا الطريـق، سيسـأله بعـد أن يخلصـه مـن ورطتـه، انحنـى ليزيـل الرمـل مـن حـول الطفـل، وقبـل أن يزيـح أول حفنـة مـن الرمـل، وجـد شـيئًا حـادًّا يُنغـز فـي ظَهـره، تذكَّـر حلـم ليلـة البارحـة، هـل اكتُشـف أمـره؟

نظـر خلفـه، وإذ برجُليـن مـن العربـان، يضـع أحدهمـا - وهـو الأقـرب لـه - سـيفه علـى ظَهـره، والآخـر يقـف بعيـدًا عنـه بخطـوات ممسـكًا بقوسـه، وقـد شـدّه مسـتعدًا لإطـلاق سـهمٍ مـوّجـه لصـدره، بـادره صاحـب السـيف سـائلاً:

- ماذا تريد أيّها الجندي؟

وضـع يـده اليسـرى علـى خصـره، وباليمنـى قبـض علـى مقبـض سـيفه، حـاول أن يُظهـر التماسـك، آمـلاً أن تدفـع بذلـة الجنديـة الأذى والشـرّ الواضـح جليًـا فـي عيـون العربـان، نظـر نحوهمـا متظاهـرًا بعـدم الاكتـراث، وأجـاب وهـو يزيـح الرمـل مـن حـول خصـر الطفـل:

- منكما؟! لا أريد شيء مطلقًا.

- ماذا تريد من هذا الطفل؟

- لا شيء أيضًا، يبدو أنّه تائهٌ عن والديه هنا، ولسبب مجهول دُفن في الرمل، حتى خصره كما ترى، سأخرجه وأعيده لأبويه.

- لا شأن لكَ به، أنا أبوه.

تبسم أحمد متعجبًا قبل أن يسأل:

- ولماذا دفنته هكذا إذًا؟

- لا عليكَ أنتَ، نحن أعلم بما نفعل، عليكَ أن تغادر الآن.

توقف عن إزاحة الرمل من حول الطفل، وهمّ بالوقوف، أمسك الطفل بيديه وهو يبكي قائلاً:

- لا تصدقه، إنّه ليس أبي، لقد اختطفاني من أسرتي، وأحضراني عند دير بالقرب من هنا، وهناك فعل رجل يرتدي السواد شيئًا ما لخصيتي، إنّهما يؤلماني، لا تدعني لهما، وحياة النبي لا تتركني هنا.

اندهش أحمد مما سمع، غاص السيف قليلاً في ظَهره منبّهًا إياه أن هناك من يهدّده، وأنّ حياته على المحك، تملّك الغضب من صاحب القوس، وكاد أن يفلت سهمه ليستقر في صدر المملوك، الذي يحاول تحرير صيدهم، منعته إشارة خفية من رفيقه مِن أن يطلق سهمه، حرّك صاحب السيف نصله محدثًا قطع صغير ببذلة أحمد وهو يحدثه في هدوءٍ مفتعلٍ:

- اسمع يا هذا، أنتَ الآن مجرد جندي؛ مملوك صغير، بعد عدة سنوات ستصبح أمير خمسة وربما أمير عشرة، وقتها سيكون لَك بيتٌ كبيرٌ، ومن المحتمل أن يكون قصرًا، ستأتي لنا وتطلب منا بعض الأغوات لحماية الحرملك، سنخطف لكَ بعض الأطفال، ونخصيهم ليصلحوا لتلك المهمة، المطلوب منكَ أن تغادر الآن، وتترك لنا هذا الأغا الصغير حتى نبيعه لتاجر كبير في أسيوط، وصدقني إن ذهبتَ الآن دون متاعب؛ سُيحسب هذا لكَ، وربما قمنا بتخفيض في الأسعار عندما تطلب منا أغوات المستقبل، لا فائدة من إثارة المتاعب، سنرديكَ قتيلاً، أو نكبّلكَ ونحملكَ أنتَ الآخر للدير، ونضعكَ هنا في حفرة أكبر بجانبه.

كانت لغة الأعرابي واضحة، وتهديده صريح، ورغم ملابس أحمد، التي تعطيه الهيبة، مجرد هيئة لمملوك قوي، يبث الخوف في قلوب الفلاحين، هنا الوضع يختلف؛ هذان اللذان في مواجهته هما أسياد الصحراء، وهو لا يجيد استعمال السيف المعلّق في خصره، لو قاومهم لنفّذوا تهديدهم، الفضول يقتله، ويريد أن يفهم، نظر نحو الأعرابي بجمود غير مكترث، ثم نحو السيف المغروس في ظَهره، وقال وهو ينفض الرمل من يديه:

- لا مانع عندي ولكن هناك شرط وحيد.

- لن نعطيكَ شيئًا من ثمنه.

- ليس هذا ما أريده.

- ماذا تريد إذًا؟

- أن أفهم لماذا دفنتماه في الرمل هكذا؟

- بعد أن ربط الراهب على خصيتيه فقد هذا المسكين وعيه، كثير من الأطفال يموتون أثناء تلك العملية أو بعدها بقليل، هذا المحظوظ أفاق من غيبوبته وملأ الدنيا بصياحه كما سمعت.

- لم تُجِبْ سؤالي بعد.

كاد صبر الإعرابي أن ينفد وهو يجيبه:

- سأجيبكَ، بعد أن فقد وعيَه اعتقدنا أنّه مات، أكّد الراهب بأنّه ما زال حيًا، لقد نقلناه إلى هنا ووضعنا نصفه السفلي في الرمل كما ترى، حتى لا يؤذي نفسه ويحكّ وجعه، ويكون مصيره الموت بعد أن ينزف دمه، نحن نرأف به ونهتم بحالته كما ترى، هلاّ ذهبت الآن؟

- نعم سأذهب، وداعًا.

ربت على كتف الصغير، ومسح رأسه والألم يعتصر قلبه، لا عائد من مقاومته لهذيْن الأعرابيّيْن، سيفتكان به ويقتلانه دون

شك، ولن يغيّر هذا من الأمر شيئًا في مصير هذا المسكين، قفز على فرسه وهو يعاتب نفسه بأنّه كان يتمنى ذات يوم أن يكون لديه حرملك واسعًا، به الكثير من الجواري والأغوات، ملعونة تلك السعادة المبنية على عذابات الآخرين.

*****

(14)

مقبل

لم ينظر أحمد خلفه فلا يستطيع أن يتخيل أن يفقد إنسان ما، غريزة وضعها الله فيه لتستمر الحياة على وجه البسيطة لينتزعها منه إنسان آخر ليقف الأول حارسًا للثاني على الأبواب وهو يمارس غريزته بكل وقاحة، لا يمكن أن يكونوا بشرًا، لا بد أنهم نوع نادر من الوحوش، تمكنت من التنكّر بإتقانٍ في صورة بشرية، انتُزِعت من قلوبهم كلّ معاني الرحمة، وتحوّلوا إلى حيوانات كاسرة، تتنافس دون رحمة على أنثى في موسم التزاوج، أطلقت رائحتها لتجذبهم نحوها، فيقتلون بعضهم البعض.

لم يطل تعجب أحمد كثيرًا؛ فهو مثل هذا الطفل، ليس هو وحده من يشبهه، بل كلّ من يعرفهم لا يختلفون كثيرًا عنه، كلّهم انتزع منهم شيء ما؛ الأمل في المستقبل، كرامتهم، حريتهم، حتى طموحهم سُرق منهم، اغتيلت أحلامهم قبل أن تولد ودفنت الذكريات في موقد اليأس.

لم يعد هناك ما يستحق الحياة، عندما تعيش مكرهًا كأنّك ميت، تموت فيك الروح، ويبقى الجسد وحده يقاوم الفَناء.

حارت أفكاره، هل العيب فينا نحن أم في الحُكّام المتخمين بالثروات؟ أيجب أن نتغير ونغيّر مِن أنفسنا أولاً قبل أن نطلب تغيير الحكام؟ من أين يجب أن نبدأ؟ ماذا يجب أن نفعل؟ ولماذا؟ وكيف؟ ومتى؟ وأين؟ عشرات الأسئلة انهمرت عليه، وكلّ الإجابات ضلّت طريقها إليه.

ظَلَّ هكذا طوال طريقه، حتى لاح له عن بُعد خيمة صغيرة منخفضة، بالكاد ترتفع على وجه الأرض، توجّه حصانه نحوها ووقف أمامها، حاول أحمد أن يحرّك الحصان، عانده، وأبى الحراك، هنا أدرك أنّ هذا هو المكان المتفَّق عليه.

ترجّل عن فرسه ونظر نحو الخيمة، فلم يجد فيها أحدًا، دار حولها لا أحد أيضًا، الجمر أمام الخيمة يدل على وجود أحدهم بداخلها، أو ربما كان أحدهم موجودًا وانصرف بمجرد سماع وقع أقدام الفرس، صفق بيده ليعلن عن قدومه، فما مِن مجيب، رجع نحو فرسه ليركبه، كان قد نسي أن يربطه فهرول بعيدًا عنه، ولم يعد باستطاعته اللحاق به، جلس متفيئًا بالخيمة، لا يلوي على شيء.

أمسك بعود حطب، وجلس يخط على الرمال ولا يدري ماذا يفعل؟ تمكّن اليأس منه، كان منذ قليل يفكر في سبب ما تعانيه

بلاده، ويبحث عن حلّ لتلك المشكلات العضال، وهو ليس إلا فاشلاً، غفل أن يربط مطيته قبل أن يبتعد عنها.

تلفت حوله باحثًا عن أيّ أثر لصاحب الخيمة، لا شيء إلا الجمر والخيمة الخالية، التي نصبت أسفل تلة صغيرة. اقترب من التلة، لاحظ وجود كهف ضيق على جانبها الأيمن، هل فَرَّ صاحب الخيمة بداخله عندما لمح اقترابه منه؟ وقف على باب الكهف المظلم، فتملّكه الرعب من فكرة دخوله، فقد تكون مغارة لوحش من وحوش الصحراء، أو بها خفافيش ستقتلع عينيه من محجريهما، ولن تتركه إلا بالطبل البلدي، وربما تكون مليئة بالثعابين أو العقارب، التي يخشاها كثيرًا، وقبل أن يولّي الأدبار، إذ بيد تربت على كتفه؛ فقفز مرعوبًا وجري يحتمي بالخيمة، وكأنّها قلعته التي ستحميه من الأعداء المحاصرين له، كانت ضحكات مقبل العالية المتواصلة تشق صمت البيداء دون خجل.

تعرَّف على صوت جاره القديم، فهدأ روعه قليلاً، ومع ذلك تضاعف حنقه عليه وغضبه منه أضاعفًا مضاعفةً، جلس على الأرض يلتقط أنفاسه بعد أن أحكم قبضة يده على مقبض سيفه، فهو سيقتله الآن لا محالة.

اقترب منه مقبل في تؤدة وثقة، ووقف أمامه ومدّ يديه ليصافحه، حاول أحمد أن يستل سيفه من غمده فقَدَم مقبل كانت أسبق لتحول بينه وبين ذلك عندما ضغط بها على يديه ليمنعه،

نظر في عينيه نظرة الواثق الشامت، نظرة يشوبها التشفّي والانتصار، وببطء رفع قدمه وهو يبتسم قائلاً:

- تريد قتلي وأنا أريد لكَ الخير؟!

- تريد ليَ الخير فتخطف عائلتي! كيف لي أن أصدق هذا؟!

انحنى مقبل وأخذ السيف من غمده، وعيناه تقدحان شررًا، ووضعه على رقبة أحمد، ووخزه بطرفه المدبب، وهو يزفر منتصرًا:

- ما رأيكَ أن أقتلكَ الآنَ؟ نعم يمكنني ذلك، وسأواري جثتكَ خلف هذه المغارة لتكون عشاء لذئاب الصحراء، هل ترغب في ذلك؟

لم ينطق أحمد ببنت شفه، إحساسه بالفشل سيطر عليه تمامًا، فحاول أن يتماسك أمام غريمه، فوقف على قدميه، ما فعله مقبل كان مباغتًا ومفاجئًا، ناوله السيف في يديه، ووضع طرفه على قلبه، وصاح فيه:

- كنتَ تريد أن تقتلني، والآن يمكنكَ ذلك، لا تتردد يا جاري العزيز.

خارت قواه وسقط السيف من يده، فتمنّى أن يقتله لكنه يعيش داخل جُبنه، كحشرة تشرنقت في طور نموها، سيبقى داخلها حتى يضعوه في شرنقة بيضاء، قبل أن يصلّوا عليه، من شرنقة الجُبن إلى شرنقة الموت طريق طويل مملوءٌ بالخزي والعار،

ليته يستطيع، لا يحتاج ذلك لمهارة استخدام السيف، مجرد دفعة ضعيفة وينهي الأمر، قلبه لا يطاوعه على هذا، يخاف من لون الدم ورائحته، كما أنّه يحتاج إليه بالفعل، بصق مقبل على الأرض أمام أحمد، ونظر إليه باحتقار، ودخل الخيمة، وحفر تحت أحد أعمدتها، فاستخرج لفافة، وعاد بها نحوه، رماها تحت قدمه وهو يأمره:

- اخلع تلك الملابس، فأنتَ لا تستحق أن يلمس جلدكَ مثلها، ارتدِ هذه الملابس واتبعني، سأنتظركَ هناك في الخيمة.

لم يلتفت أحمد نحو جاره القديم، فضَّ اللفافة وخلع ملابس الجندي المملوكي، وارتدى ملابس أوشكت أن تكون بالية، وإن كانت نظيفة، لاحقه صوت مقبل من تحت الخيمة:

احضِرْ ملابس الجندية معكَ.

جمع الملابس والسيف، وحملها وتوجه ليستظل في الخيمة، ابتسم مقبل ساخرًا وهو يقول له:

- هذه لا تناسبكَ، ما لكَ أنتَ ومال شرف العسكرية.

- عن أيّ شرف تتحدث؟ ما هم إلا لصوص اشتريناهم بأموالنا فتسلطوا علينا.

- هم أسيادكَ، هم أولاد الناس يا عديم الشجاعة.

- أنتَ تعلم جيدًا لمَ نسميهم بهذا الاسم.

- لماذا يا حكيم زمانكَ؟

- لأنّهم عديمو النسب، لا نعرف لهم أبًا أو عائلة، ولأننا شعب طيب لم نود أن نصدمهم بحقيقة هم يعلمونها جيدًا، ويتهرّبون منها، فأطلقنا عليهم هذا اللقب.

- تبهرني بتحليلاتك، والآن جاء دوركَ أيّها الخاسر.

اعتدل أحمد في جلسته مستشعرًا أن لحظات الخطر، التي لم يعتدها قد داهمته، حاول أن يراوغ علّه يستخرج منه معلومة تزيح الحزن من على قلبه:

- لا دور لي إلا إذا عادت عائلتي لبيتها.

- لا تراوغ يا فتى وإلا ستبحث عنهن في بيوت اليسرجيات[8]، هذا إذا قُدِّرَ لكَ أن تعيش.

- لقد كنتَ أخًا لي، وكنتُ أعتبركَ قدوتي، لماذا تفعل هذا بنا؟

- لأن في هذا ربحًا لي، أقدمكَ للألفي بك وهو يعتبرها خدمة مني، وأنتَ في الحقيقة رسول الموت إليه من قِبل الباشا الجديد، أضرب عصفورين بحجر واحد، إذا ما ثبّتَ الباشا أقدامه في الحكم كنتُ من

8- بيوت لبيع الجواري والعبيد.

رجاله، وإذا انتصر البك كنت من أتباعه، وصاحب فضل قديم.

- ومع مَن أنتَ في الحقيقة؟

- مع الجميع وضدهم في نفس الوقت، هل تتذكر عندما أخذ الأتراك حمير الحارة، وكان من بينهم حمارَك؟

- نعم بالطبع.

- أنا من دلّهم على البيوت التي خُبّئت فيها الحمير، مقابل أن يتركوا حمارنا، هل فهمتَ مقصدي؟

علت الدهشة وجه أحمد، وهز رأسه نافيًا رافضًا التصديق، أكمل مقبل حديثه كمعلم يلقي بدرسه على تلميذه.

- أنا كنتُ أتعامل مع الأتراك والمماليك، وعندما حضر الفرنسيون؛ لم أتردد في التعامل معهم، لستُ كخادم أو طاهٍ مثلكَ، لا، أنا أكبر وأهم من ذلك بكثير.

- ماذا كنتَ إذًا؟

- كنتُ عينهم في الأزهر، عندما كاد أبوكَ أن يفقد حياته، عندما ثار مع من ثار عليهم.

- وما وجه الفائدة من ذلك؟

علت ضحكة مقبل، حتى كاد أن ينقلب على قفاه، استند على ذراعيه خوفًا من الوقوع، تمالك نفسه حتى وقف على قدميه:

- الفائدة! كثير من الأموال، أتعلم أن هذه آخر مهمة أقوم بها؟

- هل تبتَ إلى الله؟

- تضحكني سذاجتكَ يا جاري القديم، بعد أن تنتهي هذه المهمة، سأغادر تلك الحارة الحقيرة لقصري الجديد، وهنالك حرملك مكتظ بالجواري من كلّ شكل ولون، وعندما أستيقظ من نومي، أذهب لوكالتي في الغورية لأجمع أرباحي.

- من أين لكَ كلّ هذا؟

- من أمثالكَ أيّها المغفل.

انحنى وحفر في وسط الخيمة تمامًا، وأخرج زجاجة، وبحرص وضعها بين يدي أحمد، حملق فيها وسأل:

- ما هذه؟

- هذا نوع جديد من الشُّم، كلّ ما عليك هو أن تضع للألفي بك نقطة واحدة منه في طعامه في كلّ مرة، نقطة واحدة، لا تزِدْ عن ذلك.

- وماذا إذا رآه أحد معي؟

- لا تهتم بذلك، فقط أخبره أنّه نوع من أنواع المحسنات، التي تستخدمها، ولا ضير إن أخذتَ منه أمامه ليطمئن.

- أتريدني أن أتناول السم بيدي؟

- لا تخف، القليل لا ضرر منه، هذا النوع من السم لا يظهر أثره إلا بعد التناول منه لعشرات المرات، والآن علينا الاستعداد، لأنّ جيش البك على وشك المرور من هنا حيث تلتحق بركبه.

أخذا معًا في فكّ الخيمة بسرعة، فصوت سنابك خيل البك تردد معلنة قرب بدء أحمد لمهمته، وانتهاء مهمة مقبل.

*****

(15)

الحرملك

على مهل دَبَّ النشاط في حرملك «صالح قوش» بك، انتشرت بعض الجاريات الحبشيّات في زيّهنّ الأزرق السماوي الفضفاض في المكان، يرتبنّه وينظفنّه، مرت رئيستهنّ تعطي تعليماتها بكلّ وضوح وصرامة فهي تعلم تقاليد هذا الحرملك جيدًا، كما أنّها على علم بذوق كلّ سيدة هنا، ومكانها المفضل، ولمَ لا؟ وهي من عاشت في خدمة جلفدان هانم من قبل أن تحضر إلى مصر.

كانت أول الواصلات رينا، دخلت بنت السبع سنوات مختالة في ثوبٍ أبيض طويلٍ، نُقشت عليه وردات بألوان وأحجام مختلفة، جلست في ركنها المفضل في القاعة الصغرى، بعد أن فرشت جاريتها المرافقة لها مفرشًا من السَتان الأصفر، على مرتبة منخفضة نسبيًا عن باقي المراتب الموجودة في أركان القاعة، لم يكن هذا يضايقها، فعُلوّ المرتبة وارتفاعها مرتبط بترتيبها في

الحرملك، نعم هي ابنة صالح قوش بك لكنّها الصغرى، ولن تتساوى الرؤوس في حرملك تسيطر عليه جلفدان هانم، التي تضمر الغيرة لأمّ رينا، تلك الجارية الروسية، التي صارت في أقل من سنة من وصولها قصر الباشا زوجة له، تمنّت أن يتركها في بلادهم عندما استدعاهنّ لمصر، كانت أوامره محددة وواضحة أن تحضر كلّ النساء.

أشارت رينا لوصيفتها، والتي تكبرها ببضعة أعوام، اقتربت على الفور من سيدتها، وطلبت منها أن تحضر لها كوبًا من شَراب الورد، الذي تحبّه كثيرًا، همست لها الأخرى بأنّ أوامر الهانم لا شَراب قبل تناول الإفطار، أشاحت بوجهها بعيدًا عن خادمتها، وهي تلعن جبروت زوجة أبيها، وسيدة الحرملك، وتنبذ عجز أمّها، الذي جعل عجوزًا خرقاء تتحكم في كلّ نسوة هذا القصر.

تقاطرت النسوة على الحرملك، دقائق وكان المكان يعجُّ بالحركة والنشاط، على صواني واسعة رُصّت أصناف الطعام لوجبة الإفطار، تجمّعت الأميرات - بملابسهن الفضفاضة بألوانها الزاهية، وقليل من مجوهرات الزينة - حول الصواني، تناولن وجبتهنّ ووقف الخدم والجواري يحملن أباريق مذهبة، وطسوت ومناشف حريرية، مشغولة بأشكال رائعة، وقفن يتضورنّ جوعًا في انتظار إنهاء أميراتهن فطورهن، ليصببن لهنّ الماء، ويغسلن أيديهن بماء رقراق في الطسوت الذهبية.

تسابقت الجواري في رفع الصواني، وما تبقّى كان كافيًا لإشباع جوعهن، جلست سيدة الحرملك بجسدها السمين متكئة على جانبها، وصدرها الأبيض الكبير يكاد يختنق من ضيق ملابسها، أشارت لجارية قريبة منها أن تحضر النرجيلة، أسرعت لتلبّي طلب سيدتها، واصطدمت على الباب بنحلة الواقف بطوله الفارع، وبشرته السوداء الداكنة، وشفتيه الغليظتين، وأنفه الأفطس الكبير، لم يلتفت للجارية، التي كادت أن تقع عندما صدمته دون قصد، وهي مسرعة لتحضر نرجيلة سيدتها.

لا يتذكر «نحلة» كثيرًا أيام طفولته، يعي تمامًا أنّه كان يعيش وسط قبيلته في غابة واسعة لا آخر لها، كانوا ينادونه كباشي، أو ما شابه ذلك على ما يُعتقد، وقع في شراك بعض الناس الغرباء ذوي البشرة البيضاء، ولباسهم الغريب، ومعهم آلات معدنية طويلة تصدر أصواتًا مدوّية، تردي من يصيبه الصوت قتيلاً، كبّلوا قبيلته كلها في سلاسل حديدية، إلا من استطاع الهروب فوق الأشجار العالية، أو في الأدغال الموحشة المليئة بالسباع.

لا يمكنه أن ينسى يومين في حياته.. يوم أن فرّقوه عن أبيه وأمّه؛ كان على الساحل سفينتان راسيتيان، والمحيط أزرق لا نهاية له، جرّوه على واحدة منهما والسياط تلهب ظهره، لا يستطيع أن ينسى نظرة أمّه وقتها والدمع يملأ عينيها السوداوين، تحاول أن تجري له لتفتديه بحياتها، أعادها الطوق الحديدي - الذي قيدوا

بـه عنقهـا، وشـدوه إلـى شـجرة ضخمـة - إلـى رُشـدها، منعتهـا مـن التحـرك، وعلـى السـفينة وضعـوه فـي قفـص خشـبي كحيـوان بـري يخشـونه، ذات صباح أخرجـوه مـن قفصـه، أمسـك بـه أربعـة رجـال أقويـاء مـن أطرافـه الأربعـة، وفـي لحظات قليلـة وبخيـطٍ ناعـمٍ قـوي كان الخامـس يربـط علامـة ذكورتـه ومـا تحتهـا بعنـف، كادت روحـه تغـادره مـن الألـم، صلبـوه دون رحمـة، وبعـد أيـام قليلـة ذبـل شـيء تحـت طرفـه الخامـس، ليصبـح خصيًـا.

تنقـل مـن حرملك إلـى آخـر، تعـرّف علـى عجـزه عندمـا عـاش فـي عالـم النسـاء، وفـي حرملك الأمـراء المماليـك والأتـراك، الحريـم ليسـت كَكلِّ الحريـم؛ فبياضهـنّ نقـي، وأجسـادهنّ لامعـة، ولحومهـن طريـة رجراجـة، كثيـرًا مـا تنتابـه حالـة مـن حـالات الهيـاج، التـي لا يـدري لهـا سـببًا عندمـا تحتـك بـه جاريـة أو يلامـس خادمـة ولـو بالصدفـة، وعندمـا يسـمع تأوهـات تلـك السـيدة السـمينة ذات الصـدر الكبيـر، وهـي بيـن أحضـان سيده، تبًـا لهـذا الخيـط الناعـم الـذي حرمـه مـن حقـه، ومنعـه مـن أن يمـارس حياتـه، ويصبـح أبًـا ذات يـوم، تمنـى لـو لـم يـأكل أو يشـرب، أو حتـى يرتـدي تلـك الملابـس المزركشـة، والتـي يمشـي بهـا مختـالاً وسـط المصرييـن الحفـاة العـراة، مقابـل أن يتـزوج، ولـو مـن أقبـح امـرأة يمكـن أن تصـادف بشـريًا، يضاجعهـا ولـو مـرة واحـدة، وينجـب طفـلاً ويصبـح أبًـا، بعدهـا هـو علـى اسـتعداد أن يخصـي نفسـه بنفسـه، ولـو بحبـل مـن الكتـان الخشـن.

أسموه نحلة؛ لأنّ بكاءه كثير الشبه بطنين النحل، نسي اسمه الحقيقي، ولغته، وأهله، أصبح مصريًا رغم لونه وملامحه، نسي كلّ شيء عن ماضيه، إلا نظرة عين أمّه، واليد التي عبثت بمقدرات رجولته، وهي تلقي بجزءٍ جفَّ من جسده طعامًا لأسماك البحر الواسع.

أفاق على صوت السمينة البيضاء وهي تناديه، اقترب منها ووقف أمامها، ويداه معصوبتان أمامه بعد أن طأطأ رأسه، وبصوت ليّن كليونة جسدها، أمرته أن يحضر لها السيدتين والفتاة، اللاتي تستيضفهنّ، عاد بظهره حتى ابتعد عنها بمسافة مناسبة، انطلق في طريقه لغرفتهن في الطابق العلوي، وفي صدره ضجيج كهزيم الرعد، استمرت جلفدان هانم مع نرجيلتهان وتجذب أنفاسها بهدوءٍ.

انتشرت الأميرات، بنات وزوجات «قوش» بك، ومحظياته في أركان الحرملك، كان بعضهن يثرثر، في ركن هادئ نسبيًا، جلست ابنتان من بناته، وحولهما الجاريات يمدحن في أعمال الإبرة التي يقُمن بها، وكأنّهما تتنافسان في معركة وهمية، كلّ أميرة خلفها جواريها، تشجعها وتهلل لها. نظرت رينا نحوهما ووقفت أمامهما تشاهد ما يفعلان، فلم تجد ما يستحق كلّ هذا الحماس، تركتهما ومرت من أمام سيدة الحرملك، نظرت نحو الأرض، عندما اقتربت من مجلسها، نفخت جلفدان هانم دخان نرجيلتها في

وجـه الصغيـرة بـكلّ عنجهِيَّـة، تلـك التـي لـم تخاطـر بالنظـر نحوهـا، هـي تعلـم جيـدًا أنهـا لـن تتمكـن مـن أن تؤذيهـا شـخصيًا، ولـمَ لا وهـي القـادرة بوشـاية صغيـرة أن تقلـب حيـاة أمّهـا لجحيـم لا يُطـاق، تجاوزتهـا فـي هـدوءٍ وذهبـت نحـو شـباك مزيّـن بحديـد الفورجيـة يطـلّ علـى الحديقـة.

اقتحـم نحلـة غرفـة الضيـوف دون اِستئذان، جلسـت علـى الأرض نفيسـة وبجوارهـا فاطمـة، وفـي المقابـل جلسـت لالا زار حـول صينيـة صغيـرة عليهـا طبـق جبـن، وبعـض الخبـز، وأنـواع مختلفـة مـن الخضـروات الورقيـة، انتهيـن لتوهـنّ مـن تنـاول الفطـور، توقـف نحلـة يراقـب إحداهـنّ وهـي تقـف، ومؤخرتهـا الجميلـة تعلـو ثـم تسـتقيم أمـام نظـره عنـد وقوفهـا، فـزاد الهيـاج فـي صـدره.

اندفـع الـدم فـي رأسـه، لونهـا الخمـري، عجُزهـا الرائـع، صدرهـا البـارز، كل هـذا جعلـه يشـتهي احتضانهـا، وَدَّ لـو كانـا وحدهمـا الآن ليعانقهـا، وليقطـع سـيده رأسـه بعـد ذلـك؛ فهـو لـن يبالـي.

وقفـن جميعًـا بعـد أن أخبرهـنّ بصوتـه الغريـب، أنّ سـيدته تنتظرهـن، وعليهـنّ أن يمثلـن بيـن يديهـا فـي الحـال، تقدمـت نفيسـة وابنتهـا نحـو البـاب، وتأخـرت الثالثـة خلفهمـا، وقفـت أمامـه وقـد خفضـت رأسـها فـي احتـرام لـم يعتـده مـن نسـاء الحرملـك، خرجـت منهـا الكلمـات متقطعـة، فـزادت اشـتعال النيـران فـي صـدر حـارس الحرملـك، خاطبتـه وهـي تخشـى أن

يشي بما ستطلب، تجرأت عندما لمحته ينظر نحوها وفي عينيه وَجْـد، عرفتـه بغريزتهـا..

- يبدو أنكَ رجلٌ طيبٌ، ويمكنكَ أن، أن، أن تساعدني...

قاطعها نحلة وهو لا يصدق أنّهما يقفان وحدهما، لمح بطرف عينه رفيقتيها تقفان خارج الباب، وتنظران نحوهما، فمنع نفسه من الاقتراب منها، فأجاب على الفور:

- يمكنني عمل أيّ شيء في هذا القصر.

- أريد فقط أن تدبر لي مقابلة مع ابنتي، هل تعرفها؟

- نعم، تلك الفتاة التي أغضبت الهانم، أليس كذلك؟

- لم تكن تقصد وحياتك، إنّها ما زالت صغيرة طائشة، هل ستساعدني؟

- سأتدبر الأمر، عندما أُشير لكِ انسحبي من المكان دون أن يشعر أحد، اتبعيني وسيكون كلّ شيء على ما يرام.

أومأت المرأة برأسها بالموافقة، وانطلقت لتلحق بمن تنتظرانها على الباب، تَجَمّدَ الرجل في مكانه، لا يُصدق نفسه بأن هناك فرصة أن يتحقق حلمه، يبدو أنّ اليوم يوم سعده، زَفرَ زَفرةً، وهرول لاحقًا بالنسوة مثبتًا عينيه على مؤاخراتهن.

وقفت رينا وحدها عند الشباك، تسابق الجميع لمشاهدة فاطمة، وهي تتراقص على نقرات دُفٍّ تنقر عليه جارية ذات بياض آخّاذ، تعالت صيحات الإعجاب برقصها، وجسدها يتمايل في سرعة وإتقان، محاولاً اللحاق بنقرات الدُّف، التي تلاعبت به يد الجارية الخبيرة.

دارت عين لالا زار في المكان تبحث عن مرشدها، وأخيرًا ظهر عند الباب، خفق قلبه بشدة عندما تبسّمت له المرأة، تلفَّت حوله واطمئن أنّ الكلّ مشغول مع خصر الفتاة، أشار لها بيده؛ فقامت بخفة، وتبعته دون أن يلحظ أحد.

تبعته في سرداب ضيق مظلم، والظلام الحالك منعها من رؤيته، تتبّعت صوت قدميه، وفجأة اصطدمت بجسمه، لف ذراعيه حولها، ضمّها بقوه نحوه، شعر بلين نهديها يلتصقان بصدره، انزلقت يده أسفل انحناءة صدرها، انفتحت أبواب اللذة، لم تدرك ما يدور حولها، قبل أن تصرخ من هول المفاجأة كان قد أفلتها من بين ذراعيه، بعد رعشة قصيرة شعرت بها تمرّ في جسدها كلّه، أخذ يلهث بصوت مسموع، كحيوان جائع طارد فريسته لدقائق طويلةٍ، والآن يلتقط أنفاسه بعد أن تمكن منها.

لم تفطن ما حدث، هل انتهى كلّ شيء بهذه السرعة عندما احتضنها؟ ولماذا تركها بهذه السرعة؟ وما سبب كلّ هذا اللهاث؟ هي محرومة من لمسة رجل منذ سنواتٍ طويلةٍ، مات زوجها قبل

حوالي عشر سنوات، شعرت أنّ جاذبيتها مهدرة طوال تلك الفترة، والآن يقع حظها التعس في خصي يفشل في أن يلملم لها عقد أنوثتها، ويعيده حول عنقها مرة أخرى، في قسوة بريئة منعها من متعة خاطفة، لم تعِ ما حولها، أما هو كان يشعر بأنّه قد حاز الدنيا كلّها في تلك اللحظات القليلة النادرة والثمينة من حياته، لم يكن يستطع طوال حياته أن يُقدم على هذه المغامرة، لو حدث لقُطعت رأسه، أو أُلقيَ به في النهر مربوطًا بصخرةٍ ضعف وزنه مرات عديدة، أو قتلوه بالتنصيص؛ وقطعوه لنصفين من عند خصره، وتركوه يصارع الموت، الذي سيأتيه بعد ساعات من الألم، تمالك نفسه، وبصوت رفيع مبحوح تمتم بكلمات لم تفهم منها شيئًا، اعتقدت أنّه يعتذر لها، أو يبرر لها ما حدث، لو فسرت كلماته؛ لوجدته يلعن مَن خصاه، ولشاركته في هذا دون تردد، سحبها من يديها فتبعته مبهوتة، وهو ما زال يلعن من فعلها به.

جلست عائشة في ركنٍ شبه مظلم، وأمامها كومة من البصل تقشرها، لم تتعرف عليها أمّها من الوهلة الأولى، في سويعات قليلة تغيّر حالها، كبرت في العمر سنوات، بهتت نظرات عينيها بعد أن كانت تلمع كعقيقتيْن، أصبحت زائغة لا تستقر، تبدّل حالها، وأصبحت ترتدي ملابسًا خشنة تغطي جسدها الرائع، الذي سيضمر قريبًا من الحزن.

اندفعت لالا زار نحو ابنتها، وضمّتها لصدرها، وارتفع صوت بكائها، احتضنتها عائشة، والدمع ينساب من عينيها في صمت.

افترشتا الأرض بجانب كومة البصل، امتلأت عين الأمّ بأسئلة أدركتها الشابة بذكائها، ألقت برأسها على صدر أمّها، خرجت الإجابات معانقة أنفاسها الحارة، ودموع تكفي أن تغرق العالم هَمًّا:

- القهر يا أمّاه، القهر يحوّلنا إلى عجائز عاقرات، لا قدرة لدينا حتى على الانتحار.

- لا تتحدثي هكذا يا صغيرتي، لقد أصبح لابنة خالتكِ حظوة عند الهانم؛ ستتوسط لكِ، لقد اتفقنا على هذا.

- لن يُجدي هذا يا أمي، إذا أردتِ أن تتعرّفي على أصحاب القصر فهنا هو المكان المناسب لا الحرملك، الكلّ يتحدث عن قسوتها وعنادها كما يتحدثون عن نهم «قوش» بك للطعام، وشغفه بالنساء، وكرهه للمماليك وأمرائهم، ومع ذلك تسيطر تلك العجوز القاسية على رغباته وجموحه، ورغم تجاعيد وجهها إلا أنّها ما زالت شبقة لمعاشرته كلّ ليلة، هكذا يقولون.

تلفتت لالازار حولها خائفة أن يكون هناك من يسمعهما، اقتربت من ابنتها وتمتمت:

- اصمتي يا بنيتي، قد يسمعكِ أحد ويبلغ مولاتي بهذا...

- مولاتكِ!

- ولمَ العجب؟ أليست هي سيدة القصر والمسيطرة كما تقولين؟

- بلى، لكنّها ليست مولاتنا، ولو عاد بي الزمن لكررتُ ما فعلتُ.

لم تندهش لالا زار من عناد ابنتها، فهي ورثته من لبنها، إنّه العمر الذي يغيّر كلّ ما فينا، وليس فقط الملامح، العناد والاعتداد صفات لها، فقدتهما مع أول ليلة صارت فيه أرملة، تنهَّدت وهي تنظر في عينيّ صغيرتها فقد حان موعد رحيلها، أشار لها نحلة بالعودة قبل أن ينكشف أمرهم، احتضنتها تمنَّت أن تبقى هي هنا وتعود عائشة للحرملك لتنعم برغد العيش، قبَّلتها بين عينيها وهي تعدها بأنّها ستحاول مع مولاتها؛ أصرَّت الشابة بأنّها لن تعود إلا بشروطها، اندهشت الأم كثيرًا من خيال ابنتها الخصب، جذبتها يد رفيقها برفق وبسرعة قبل أن تردّ عليها.

*****

(16)

البحث

عبر بابٍ منخفضٍ بالقرب من كومة البصل قاد نحلة تابعته خارج المطبخ، مرًا بقبو صغير تفوح منه رائحة العفن والرطوبة، أشار نحو براميل خشبية في أحد أركانه وهمس لرفيقته:

- هل تريدين بعض الخمر القبرصي المعتق؟

تعجبت لالا زار من وجود خمر في قصر أحد الباكوات، الذين تعتقد أنّهم لا يخطئون، ولا يرتكبون المعاصي أبدًا، ردت بعفوية:

- خمر! أستغفر الله العظيم،هل تشرب يا «نحلة»؟

- لا والله، ظنّنت أنّك تحبّين أن تجربي.

- هل يشرب البك؟!

- في الواقع لم أره مطلقًا يحتسيه في الحرملك أو خارجه، أحيانًا يرسل لطلبه وهو في ديوانه عندما يأتي لزيارته بعض القناصل الأوروبيين .

عبر بابًا ضيقًا منخفضًا في الجهة الأخرى من القبو، خرجا لحديقة صغيرة يكسوها العشب وفي وسطها نخلة عالية وحيدة يطلّ عليها الحرملك بشباك وحيد مزين بحديد فورجية. وصل لآذانهما صوت نغمات العود ممزوجًا بغناء فاطمة الساحر، تعرفت عليه خالتها، وأخبرت مرشدها بذلك، اطمئن أنّ النسوة ما زلنّ منشغلات في لهوهنّ.

توقفت لتشكر نحلة، هي لا تعرف أنّها من تستحق الشكر من وجهة نظره، فهي من جعلته يشعر برجولته، لا لأنّها جعلته يرتجف عندما لمسها؛ بل لأنها جعلته يشعر بآدميته، توسمت فيه الرجولة، فطلبت منه المساعدة وهو قد أتمّ مهمته على أكمل وجه، ساعد أمًّا على أن تجتمع بابنتها، ليته وجد من يفعل فعلته مع أمّه، عندما خطفوه في الغابات البعيدة.

دلف من الباب المخصص للوقوف عليه، نظر حوله فوجدهن منصتات لغناء الفتاة، وقد وقف الطير على رؤوسهن، يتمايلن في تلذذ، وقد لف الشجن المكان، أشار لها، فدخلت، وجلست في الخلف، وقلبها يدق خوفًا من أن يكون أحد قد كشف أمرها.

نظرت نحو أختها، فلم تشعر بعودتها، كما لم تشعر باختفائها، دقائق وانتهت فاطمة من غنائها، ألحّ الجميع أن تستمر، أنهت الهانم الأمر، ووعدتهنّ بأنّها ستغني مرة أخرى في وجود الباشا، انفضَّ الجمع، وعادت الأميرات إلى أماكنهنّ يتحدثنّ عن رقص وغناء تلك المصرية العجيب.

مدت جلفدان هانم يديها لفاطمة، قبلتها على جبينها، نظرت الجواري لها في حسدٍ، نالت الوافدة الجديدة شرف لمس يد الهانم، ربتت على كتفها، وهمست لها في أذنها بكلمات قليلة، وأشارت لها بالانصراف، تجمعن معًا هي وأمّها وخالتها، اقتربنّ من الباب ليخرجنّ، ويعدنَ لحجرتهنّ ولكنّ صياح جارية أوقف الجميع، كان صوتها أشبه بالنواح والبكاء وهي تصيح في قلق:

- أين مولاتي رينا؟ لا أجدها هنا، لقد اختفت.

عمَّ السكون المكان، وقفت الهانم، والشرر يتطاير من عينيها، أشارت للجارية بالاقتراب، لطمتها على وجهها، وسألتها في حدة:

- ماذا تعنين أيتها البلهاء بأنّها اختفت؟

- ليست موجودة في الحرملك يا سيدتي.

رفعت رأسها والغيظ يملأ عينيها، وأشارت لنحلة بالاقتراب، رجف قلبه، وارتعشت ركبتاه، هل علمت بغيابه؟ بالتأكيد عرفت

ذلك، وإلا ما نادت عليه وحده، فعلى الباب الخارجي للحرملك يقف شيطح، لماذا لم تطلبه للمثول أمامها هو الآخر؟ أسرع في تلبية النداء متمنيًا أن يخطفه ملك الموت قبل أن يصل إليها.

نظرت نحوه وقد ازداد احمرار وجهها، وجحظت عيناها من شدّة الغضب، أشارت إليه بطرف سبابتها:

- أين ذهبت الصغيرة يا نحلة؟

- لا أدري يا سيدتي، لم تخرج من الحرملك.

- إذًا أين هي؟

- لا أعرف، ربما غافلت شيطح وخرجت.

- لو لم تظهر الصغيرة أعدكما بعذاب غليظ، اذهب واحضِره في الحال.

«لم تعرف باختفائي»، هكذا حدَّث نفْسه، ثم عاودته سحابة من التفكير المتشائم، فمثل هذه لا يُؤمن لها جانب، علّها دبرت مع شيطح خطف رينا والتخلص منها، وغيابه وفرّ الجو الملائم للمؤامرة، سيقف زميله أمامها، ويخبرها: بأنّه رآه يأخذ الأميرة الصغيرة ويخرج بها. وستجد العديد والعديد من الجواري ليشهدن على ذلك، سيقطعون رأسه عقابًا على هذا، ويحشونها بالقش ويعلقونها على باب القصر، ويرمون باقي جسده في الصحراء ليكون عشاءً

فاخرًا للجوارح، الويل لك يا نحلة، سيضيع عمرك من أجل معانقة لم تستفد منها شيئًا إلا دليلاً عمليًا على عجزك وعدم رجولتك.

وقف شيطح بعينيه الدعوشتين بجانب نحلة، كالت لهما السباب ووعدتهما بعقوبات رادعة تصل للقتل بالخازوق لو لم تظهر ابنتها قبل الليل، إنّها تدعوها ابنتها، والكلّ يعلم كم تكره أمّ الصغيرة الروسية، التي لم يسمع لها أحد صوت حتى الآن، لم يعد السؤال الآن أين رينا؟ بل هو أين رينا وأمّها؟ دارت الهمهمة بهذا السؤال في كلّ أرجاء الحرملك مع توقعات بهروبها، بعد أن خطفت ابنتها، وصل كلّ هذا لسيدة الحرملك، صاحت في الجميع بأنّ عليهم الصمت. خيم السكون على المكان بصقت وهي في قمة غضبها وصرخت بهنّ:

- كيف تجرؤن على قول هذا؟! لو علم «صالح قوش» بك بقولكنّ؛ لتخلص منكنّ جميعًا، هل جننتنّ؟ ألا تعلمن عمّن تتحدثن؟ إنّها زوجة البك، وكفى بهذا فخرًا، وهي ضرتي وكفى بهذا عزة.

بصقت مرة أخرى، وقد زاد غضبها، وأشارت للخصيين وهي ترغي وتزبد:

- أما زلتما هنا؟ هيا اذهبا ولا ترياني وجهيكما إلا ورينا معكما.

انطلقا ليبحثا عن الصغيرة بعد أن اطمئن نحلة قليلاً إلى أنّ أحدًا لم يلحظ غيابه، أو يعلم بفعلته، عليه أن يجتهد ويجد الأميرة

الضائعـة، ربمـا يكافئـه الباشـا، وينعـم عليـه بحريتـه، مـاذا سـيفعل بحريتـه؟ وهـل لأشـباه الرجـال حريـة؟ لا يريدهـا ولا يتمناهـا، كلّ مـا يرجـوه هـو أن يرضـى عنـه سـيده، ويمنحـه بعضًـا مـن الثقـة.

كان الحرملك هادئاً على غير العادة، انزوت الأميرات في أماكنهنّ صامتات، ووقفت الجواري كتماثيل شمعية خلفهن، جلست لالا زار وأختها في ركن بجانب الباب الخارجي للحرملك، همست نفيسة في أذن أختها:

- هل رأيتها؟

هزت رأسها بالإيجاب، وعادت أختها للسؤال:

- طمئنيني، هل هي بخير؟

سالت الدموع من عينيها، فهمت أختها، ربتت على ظَهرها، وانسكب الدمع من عينيها هي الأخرى، متذكرة وحيدها، والمخاطر التي يواجهها في المجهول، الذي لا تعلم عنه شيئًا، أجهشن بالبكاء، اعتقدت جلفدان أنهما يبكيان قلقًا على ابنة زوجها.

هبّت جميع النسوة واقفات، عندما شرف قوش الحرملك، كان القلق يعتصر قلبه، أعداؤه كثيرون، لم يتخيل مطلقًا أن يصل الخطر لعقر داره، هل تمكن الألفي الملعون من خطف ابنته ليساومه عليها؟ ماذا هو بفاعل لو كان الأمر هكذا؟ هل يغدر برفيقه الألباني

مـن أجـل صغيرتـه؟ أم عليـه أن يلتـزم بالخديعـة كعادتـه؟ اندفعـت «جلفـدان» نحـو زوجهـا، سـألها والقلـق يقطـر مـن حروفـه:

- كيف حدث هذا؟

- لا أحـد يعلـم حتـى الآن، شيطح كان يقـف خـارج البـاب الخارجـي للحرملك، ونحلة تولى أمر الباب الداخلي.

- وأين هما الآن؟

- ذهبا ليبحثا عن الصغيرة.

- وأين أمّها؟

- ذهبت لزيارة السيدة زينب.

- نعـم، لقـد أخبرتنـي بهـذا، ولكنـي نسـيت، لقـد أغلقـت كلّ بوابـات القاهـرة، وهنـاك فرقـة مـن الأرنـاؤود تبحـث عـن الصغيـرة الآن، ولـن ينامـوا حتـى يعـودوا بهـا.

زادت الكلمـات مـن انزعـاج الموجوديـن، عمليـة البحـث قـد تطـول، لا أحـد يعلـم مـاذا سـيحدث فـي عمليـة بحـث كهـذه مثـل فاطمـة وأمّهـا، سـينتشر الجنـود فـي كلّ مـكان، وسـينهبون البيـوت والمحـلات والمخـازن بحجـة البحـث عـن شـيء لا يفصحـون عنـه، إذا قـاوم أحـد، أو أظهـر التذمـر؛ فقـد يصـل الأمـر للسـجن، وربمـا للقتـل أو الاغتصـاب،

كلّ هذا من أجل حصان عزيز على أحد الأمراء فرّ هاربًا، أو جارية يئست من حياتها لسوء معاملة أسيادها فقررت في لحظة جنون أن تهرب، ترى ماذا سيحدث هذه المرّة وهي ابنة قائد الأرناؤود؟

تتبعت عيون الحريم سيد الحرملك وهو يتحرك في أنحاء المكان على غير هدًى، توعد بعذاب أليم لمن قام بخطف ابنته وأنّه سيمحو عائلة هذا المجرم من على وجه البسيطة إذا ما لحق بها أيّ أذًى، عقد يده خلف ظهره، وتعلقت عيناه بالأرض، ثم اندفع خارجًا من الحرملك، صوته المرتفع كان يتردد داخل حرملكه، وهو يكلم أحد كبار ضباطه:

- اعلنوا وبسرعة عن جائزة كبيرة لمن يدل على صغيرتي، هيا بسرعة.

عاد كأسد جريح لعرينه، نكّسَ رأسه، ماذا لو علم محمد علي باشا بما حدث في بيته؟ ستهتزُّ ثقته به بكلّ تأكيد، لا، عليه بأن يتكتم على الأمر، خرج مسرعًا وتحدث مع ضباط فرقته، ملغيًا فكرة الإعلان عن تلك الجائزة، ورجع والحيرة تكاد أن تفتك به، اقتربت منه جلفدان هانم دون أيّ كلام، وبمجرد إشارة أوقفها، فعادت لتجلس مكانها، وهي لا تعلم كيف ستبرر له ما حدث؟ سيتهمها بأنّها من دبرت ذلك، تعلم جيدًا أنّه لا يعيش دون مؤامرات، وبالتأكيد سيتهمها بالتآمر.

قطع الضجيج خارج الحرملك الصمت بداخله، خرج الباشا بسرعةٍ، وعاد وهو يحتضن ابنته، ويجري مهرولاً، تبعته عائشة بعدة لحظات، تبحث بعينيها عن أقاربها، عمَّ الفرح المكان، بينما الدهشة قد أوقفت أمّها وخالتها وبنت خالتها، وتملكهنّ الفرح بعودة رابعتهنّ.

حاول قوش بك أن يفهم ما حدث من ابنته، لم تنطق ببنت شفة، اتسخت ملابسها، وتعفر وجهها وشعرها، كأنّها لم تعرف للحمام طريقًا منذ أن ولدت، هزها أبوها ولم تنتبه لما حولها، لقد تبعت لالا زار ظنًا أنّها ستحضر لها كوبًا من الشربات كما وعدتها من قبل، وفي السرداب المظلم تعرفت على كلّ أنواع العفاريت والجان، الذين تسمع عنهم في الحواديت، رأتهم بأمّ عينيها، رأت وجوههم الزرقاء، وعيونهم الحمراء، وأظافرهم الطويلة، وأرجل ماعز سوداء، وشعرهم الأشعث الطويل، والذي ينتهي برؤوس ثعابين مخيفة، كادوا أن يخطفوها، لولا أنّها جرت، حتى وقعت أمام كوم البصل في المطبخ.

سأل البك عائشة عن ملابسات عثورها على ابنته، كان أشبه باستجواب قاس، رباطة جأشها ساعدتها على أن تُقنعه بأن لا يد لها فيما حدث، وأنّها وجدتها، وتعرفت عليها وأعادتها، اطمئن أنّ كلّ شيء بخير، فسأل سؤالاً أخيرًا:

- كيف أكافئك؟

- العفو يا جناب البك، لم أفعل شيئًا يستحق المكافأة.

- هل أنتِ جارية هنا؟

- لا.

- لو كنتِ لمنحتك حريتك، من أنتِ إذًا؟

- من المفروض أنّني ضيفة عندكم مع أمي وخالتي وبنت خالتي.

سرح الباشا بخياله لثوانٍ ليتذكر شيئًا ما، لم يطل الأمر، لا بد أنّهم أقارب الشاب المصري، الذي ذهب ليقتل الألفي اللعين، نظر نحوها وهو في حيرة من أمره، إن كانت هي من أقاربه، فلماذا ترتدي تلك الملابس الحقيرة؟ وما السبب بأن تكون في المطبخ؟ فهمت ما يدور في خلده دون أن يفصح عنه، أسرعت لتجيب عن تساؤلاته:

- غضبت سيدة القصر عليّ دون أيّ خطأ مني.

تحركت جلفدان للاقتراب منهما، أشار لها البك أن تبقى مكانها، عادت عاصفة التساؤلات تعصف في رأسه، وكعادتها أجابت قبل أن يسأل:

- كان اليوم الذي حضرنا فيه إلى هنا يومًا عصيبًا علينا، عرضنا رجالك في سوق النخاسة، ثم قضينا ليلة مزعجة في حجرة ضيقة

مليئة بالجان والعفاريت، وفي الصباح غضبت مني جلفدان هانم لأنني كنت أريد أن أشكو لها ما حدث لنا، لم تستمع لي وعاقبتني بأن أعمل في المطبخ كخادمة، ولعله خير يا باشا، ربما كلّ هذا حدث حتى أجد ابنتكم وأعيدها لأحضانكم.

أشار لكبيرة الجواري أن تأخذها للحمام هي وابنته، تبسم لعائشة مطمْئِنًا، لكنّ نظراته نحو جلفدان كانت تحمل كلّ معاني العتاب واللوم، لم تقلق الهانم كثيرًا من هذا، هي قادرة على تخطي محنة صغيرة مثل هذه، كما تخطت الكثير من قبل، أدركت وقتها أنّ هذه الملعونة، وأقاربها يمثلون خطرًا حقيقيًا عليها الآن، عليها أن تتخلص منهم بسرعة ودون جلبة أو ضوضاء.

*****

(17)

المارستان

درجات متقاربة تصعد تارة وتهبط تارة أخرى، لتعود للصعود متعرجة بشكل عشوائي، تقودك في نهايتها لميدان صغيرٍ، شوارع ضيقة متعرجة تصبّ فيه، وكأنّها قنوات صغيرة شقتها الأمطار لينتهيَ مصير مياهها في بركة كبيرة.

محال صغيرة متلاصقة، أمام أحدها منصات خشبية منخفضة، فوقها تلال صغيرة من التوابل، وانتشر عبقها في المكان، فاختلطت وتمازجت روائحها وألوانها في روعة عجيبة، بجواره تكدست كثبان صغيرة من الزبيب بلونه العقيقي في تنافر مربكٍ مع جوز الهند المبشور، متقاطعين مع أكوام صغيرة من المشمشية والقراصيا وعقود التين المُجفف، انتصبت هضبتان صغيرتان من الكركدية والتمر هندي على الأطراف كحارسين يحميان المكان، في حانوت مجاور للعطار

تكوم رجُل تحت أثواب قطنية في كسلٍ مفرطٍ، وقد تشاركت على الحائط أثواب قماش في تناغم بديع.

ازدحم الميدان بالباعة والزبائن رغم الحر الشديد ومع كلّ هذا الزحام لا أحد يبيع أو يشتري تقريبًا، اكتفوا بالمشاهدة وتقليب البضائع، والسؤال عن ثمنها دون شراء، أصوات متداخلة لا تميز منها شيئًا، ثرثرات النساء، صراخ الأطفال، سباب الشباب، شكاوى الرجال من الأسعار، التي تضاعفت، وعجزهم عن إطعام أسرهم، نفخات من صدور مغتاظة تخرج؛ تزيد الجو حرارة.

تأفُّفٌ، ضيقٌ، غضبٌ وعجزٌ، مزيج من المشاعر لا تستطيع أن تميزه، اختلطَ مع أشعة الشمس، وعرَق الأجساد، ورائحة تزكم الأنوف من أكوام قمامة مكدسة في أركان المكان، بجانب أحد الأكوام تحلّق الكثير من الرجال والصبيان، وقف رجل قصير وسط الحلقة، وفي يديه ديك أبيض يتزين ذيله بريشات قليلة سوداء وعُرف أحمر طويل كتاج فوق رأسه، وضعه على الأرض، نثر بعض حبات القمح أمامه ونبش الأرض بمخالبه القوية بحثًا عن طعامه، بعد أن انتهى من وجبته، واستعراض قوته وتقدَّم مالكه وحمله بين يديه.

رفع رجُل آخر ديكًا أحمر ريشه في لون الكهرمان له ثُرعلةٌ كثيفة، دار به حول نفسه، ووضعه على الأرض، وبنفس الطريقة

نثر لـه بعـض حبات الـذرة، دار ذو الرقبـة الطويلـة حـول نفسـه في تيهٍ، فنقر الأرض بمنقاره القوي، التقط الحَب برشاقة وقـوة، مـدّ رقبتـه الطويلـة فـي غـرورٍ، رفـرف بجناحيـه؛ فأثـار التـراب، ومعه تعالى صياح الرجال والصبية، توجَّه بعضهم لكهل يفترش الأرض، أمامـه صندوقـان خشـبيان، غُطي أحدهمـا بقطعـة قمـاش بيضـاء والأخـرى بقطعـة حمـراء، نـزع الغطـاء الأبيـض، وألقـى فيـه الرجـال رهاناتهـم علـى صاحـب الريـش الأبيـض الطويـل، أعـاد الغطاء الأبيض فوق الصندوق وسحب الأحمر من فوق الصندوق الآخـر، تسـارع الكثيـر مـن الرجـال، وألقـوا رهاناتهـم بداخلـه علـى الديـك الأحمـر.

تواجـه الديـكان، وبـدآ صراعًـا داميًـا ينتهـي بقتـل أحدهمـا الآخـر، يحمـس كلّ مالـك مقاتلـه للمعركـة، ويدفعـه نحـو منافسـه غيـر آبـه بعينـه، التي فقئـت، أو بـدمٍ يسـيل منـه، مـا يهُمهـم هـو أن يشارك أحـد المالكيـن بجـزء مـن صنـدوق الرهـان، مـن خلـف الحلقـة مـرّ «سـالم المرجـاوي»، لفـت انتباهـه صيـاح الرجـال وحماسـهم، رفـع عنقـه محـاولاً أن يـرى المتصارعيـن ولـم يتمكـن، غـادر مسـرعًا، فـلا وقـت يضيعـه بعـد طـول غيـاب عـن عائلتـه، لعلهـم فـي انتظـاره الآن، ليشـاركهم الغـذاء السـاخن، تمنـى أن تكـون زوجتـه قـد أعـدت لـه محشـي الباذنجـان والفلفـل، الـذي يحبّـه.

كأنّ البيت مهجورًا منذ فترة، وهذا واضحٌ من التراب المكدس على الحيطان والفرش البسيط، توجه مسرعًا نحو منزل جاره مقبل، وقف على الباب وصفق بيديه، ناداه؛ وخرج له متظاهرًا بأنه متفاجئًا من زيارته، ورحّب به كثيرًا، محاولاً إظهار كرمه، سأله رب العائلة العائد من عمله في أحد مصانع السكر بالصعيد عن عائلته، فقد كان آخر عهده بهم أنّهم كانوا برفقة جاره وعائلته متوجهين نحو مولد السيد البدوي، رفع الجار كتفيه، وقلب شفته السفلى كنوع من الإجابة على سؤاله، لم يفهم سالم ما المقصود من هذه الإجابة.

أعاد السؤال مرة أخرى، ولم يكد مقبل يفتح فمه ليجيبه، حتى أخرسته المفاجأة، عزّ الدين وجنوده واقفون أمام بيته، دفع جاره جانبًا وأسرع مرحبًا بضيفه الجديد، اقترب من حصانه، لكن الفارس ركله من فوق حصانه بقوة في صدره، وقع على أثرها على الأرض أمام جاره، ترجّل بعض الجنود عن أفراسهم، كبلوا الممدّد على الأرض، ونبشوا بجانب بيته حفرة صغيرة، فظهر كيس قماشي بين يديّ أحدهم، سلمه لعزّ الذي أخذ يرفعه ويلقفه أمام صدره، وهو يبتسم في مكر، والسؤال ينساب من فمه في برود:

- لماذا سرقت هذا الذهب من قصر قوش بك؟

- لم أسرق شيئًا، أقسم لك يا أميري، لم أسرق شيئًا.

- سرقت يا عزيزي بمساعدة تلك النسوة اللواتي أودعناهنّ هناك كضيفات مكرمات.

- صدِّقني لم أفعل، أقسم بالله العظيم أنّني لم أسرق.

- « قالوا احلف؛ قال جاءك الفرج»، هيا احضروه.

رفعه الرجال من على الأرض، اندفع سالم ووقف تحت قدم الأرناؤودي، أمسكها بيده وأخذ يقبلها والدمع ينهمر من عينيه:

- أرجوك أن تساعدني جنابك.

- من هذا؟ هل هو؟

نظر نحو المكبل الواقف في ذلة، هزّ رأسه في وضاعة دون أن يرفع عينيه.

- أنت والد أحمد؟

- نعم يا سيدي، أنا أبوه وفاطمة ابنتي، ونفيسة زوجتي.

- احضروه مع مقبل، هناك أكياس في المركب تكفي الجميع، والأحجار الثقيلة متوفرة، والنيل لن يرفض إغراقهما معًا.

جثى مقبل على ركبتيه مستعطفًا، أصبح مصيره واضحًا أمامه الآن، سيضعونه في كيس قماشي متين بعد أن يكبلوا يديه، وقدميه، ويرافقه في الكيس أحجار ثقيلة، كفيلة بأن يستقرَّ الكيس في قاع النيل في ثوانٍ، لم تشفع له الخدمات التي قدمها، ولا دموعه التي تغمر وجهه، لن يسعد بقصره الجديد، الذي كان على وشك الانتقال إليه، لن يفرح بتجارته، التي أعدّ لها محله الجديد، كلّ شيء صار هباءً، حقًّا إنّ آخر خدمة الغزّ علقة، ما ذنب هذا الكهل الذي سيشاركه مصيره المحتوم؟! رفع وجهه ودموع الندم تغرقه، خرجت الكلمات منه كتَوْبة يعلنها، أو كحسنة يريد أن يكسبها في آخر حياته، لعلها تشفع له يوم حسابه، فأجابه:

- لا ذنب لهذا المسكين، إنّه مجرد مجنون، نعم، هو مجنون، فقد عقله بعد أن فقد عائلته.

ضحك عزّ في مجون، وهو يسمع هذه الكلمات، هز رأسه بالموافقة ساخرًا:

- مجنون! فليكن هذا، للمجانين أمثاله مكان يليق بهم، خذوا هذا المجنون للمارستان، وهذا اللص حيث اتفقنا.

وكز حصانه، واستدار منصرفًا، ومن خلفه بعض جنوده، قاد الآخرون الجارين كل منهما إلى نهايته، دموع مقبل لم تتوقف،

وصياح سالم متسائلاً عن عائلته لم ينتهِ، كلّ ذلك وأهل الحارة لا يجرؤون على أن يطلوا من نوافذهم، حتى لا يشاركوا أحدًا منهما في مصيره.

*****

(18)

فك الحصار

على أريكته في صدر ديوانه جلس يدخن غليونه، وقد عبق المكان برائحة التبغ اللاذقي، تخلل الدخان الخارج من أنفه شعر شاربه الكثيف، مد شفته العليا للأمام، ونظر للدخان وهو يتصاعد من بين شعيرات شاربه، تبدد الدخان، وعاد يسحب نفَسًا أعمق، تجسد الدخان على شكل امرأة مكتنزة، مر طيف جلفدان في ذاكرته، تلك المرأة تمتلك كل قلبه، ولكنها لا تتورع عن إبعاد أي امرأة عنه، وكأنها تحاصره وتحصره في قلعتها، حيث لا باب ينفذ منه، أو شباك يجدد هواء حياته.

ورغم هذا الحصار، إلا إنّه تمكن أكثر من مرة من كسره، والخلاص منه، ولو لساعات قليلة، لكنها كانت كافية أن يضيف لنسائه واحدة، تقبلها سيدة الحرملك على مضضٍ،

وتشدد من حصارها، علها تتمكن من الاستئثار به ومنعه من مغامراته الهوجاء.

يحلم بأن تلد له زوجة من زوجاته ذكرًا، ولد يحمل الراية من بعده، يقف بجانب الوالي، أو أحد خلفائه، ويكون ساعده الأيمن، كما هو حاله مع محمد علي باشا، ولكن دائمًا يبقى ما يتمناه حلمًا، ومع كل ولادة جديدة تزف له القابلة قدوم بنت مثل القمر، لا يضاهيها أحد في جمالها، إلا أمها.

سحب النفس الأخير من غليونه، وقبل أن يخرج الدخان من صدره، تقدم خادمه وأخذ الغليون من يده، وأسرع في إعطاء أوامره لعبد يقف بالقرب من باب الديوان أن ينطلق كالريح لينظف الغليون، ويحضره بسرعة ليجهزه هو بنفسه لسيده ومولاه.

خرج العبد، وفي يده الغليون بقصبته الطويلة، ليدلف من بعده أحد الحراس، يخبره أن هناك ضابطًا يطلب مقابلته، نظر الخادم في عين سيده، وعلى الفور أعطى الإذن للحراس لدخول القادم، وما هي إلا لحظات، وكان عز الدين يقف أمام قوش بك، وبين يديه صندوق خشبي من الأبانوس الأسود مُطعم بالصدف، انحنى قدر ما يمكنه، وقبّل الأرض بين يديه، ورفع الصندوق أمام سيده.

تقدم الخادم بسرعة وفتح الصندوق، نظر صالح قوش عليه وغمغم بصوت متقطع:

- هذه هي المجوهرات التي سُرقت من الحرملك؟

ودون أن يرفع عز الدين عينيه أو يخفض يديه، قال في ثباتٍ:

- هي يا سيدي.

- أحسنت يا عز الدين، قبضت على اللص بسرعة، كنت عند حسن ظني بك.

أسعدت كلمات الأطراء عز الدين، مما شجعه على أن يقترب ويقبل طرف كُم سيده، الذي ربت على كتفه، وهو يأمره بالوقوف، وقف نافخًا صدره، ويده اليسرى مضمومة إلى جانبه، واليمنى تحمل الصندوق، تقدّم الخادم، وأخذ الصندوق من يده، وخرج دون كلام.

أشار البك لضابطه بالجلوس؛ فجلس غير بعيد عنه، وعيناه معلّقتان بعين قائده، الذي سأله في فرحٍ:

- هل عرفت كيف دخل هذا الأفاق إلى الحرملك؟

- في الواقع هو لم يكشف عورة حرملك حضرتكم، لكن

المسروقات خرجت له بمساعدة ضيفتين تقيمان في ضيافة سيادتكم، واحدة منهن جارة قديمة له، وهي من تمكنت من مغافلة الخَزنة، وحصلت على المجوهرات، والثانية أوصلتها له، كل هذا تم أثناء ما كانت ثالثة صغيرة ابنة واحدة منهن تغني وترقص في الحرملك.

تلك الصغيرة، التي أثارت شهوات الباشا عندما وقعت عليها عينه، تمنى لو كانت جارية من جواريه؛ ليقضي وطره، سأل في لهفة:

- وهل هي مشتركة أيضًا في هذه المكيدة؟

- لا يا سيدي، لكن يا جناب البك هناك شابة أخرى معهن يمكن أن تكون خطيرة، ولا أستبعد أنها لها يد في اختفاء نجلتكم الكريمة، وربما كان هذا جزءًا آخر من الخطة، يخطفونها ويساومننا عليها، أو حتى ليضمنوا سلامتهن حتى يخرجوا من البلاد.

انتفض البك في جلسته، عندما تذكر حادثة اختفاء صغيرته رينا، وحاول ربط الخيوط ببعضها، كيف اختفت؟ ومتى؟ وكيف عادت؟ ومن أعادها؟ حك لحيته بيده، وهو ينظر بعمق في عين ضابطه:

- هل أنت متأكد من هذا يا عز؟

- هذا هو أغلب الظن يا سيدي، وأرى أنه من الأفضل أن نتخلص منهن جميعًا.

اطرق البك يفكر في هذا، وسبابته تتشارك مع إبهامه في شد شفته السفلى برفق، التخلص من العجوزتين سهل، والاتهام جاهز، والعقاب معروف، دخل الخادم يؤكد أن ما كان في الصندوق هو المسروقات بعينها، ولم ينقص منها شيء، وعلى الفور أطلق صاحب الديوان أوامره للخادم بأن يقبض طواشي الحرملك على السيدتين، وتُسلما إلى القوة في الخارج، وينتظروا الأوامر التي ستأتي مع عز الدين، خرج الخادم مسرعًا وعاد ليشعل لسيده الغليون، ويتأمل الدخان المتسلل من بين شعيرات شاربه.

نظر نحو عز في مودة، وابتسم وهو يلوك الكلمات، ويمزجها بالدخان الخارج من فمه:

- من الظلم أن نأخذ الصغيرتين بإثم لم ترتكباه.

هز الضابط الجالس بجواره موافقًا، أكمل البك حديثه:

- ومن الخطر أن نبقي التي تشك فيها، أليس كذلك؟

على الفور رد عز بالإيجاب على سؤال قائده، أكمل القائد كلامه بعد أن فرغ فمه من الدخان:

- ماذا لو فرقنا بينهن؟

- لم أفهم مقصدك سيدي.

- قل لي، هل ترك السارق شيئًا يُورث؟

- نعم، بيت جديد، صغير إلى حد ما، وله حديقة متواضعة، ووكالة في خان الخليلي عامرة بأنواع البخور والعطور.

ضحك صاحب الديوان ضحكة عالية، وعاد للكلام مرة أخرى:

- وعجوزتان ستلقيان حتفهما عن قريب، وفتاتان على قدر كبير من الجمال.

صمت لبرهة وهو يفتل شاربه الكثيف وأكمل حديثه:

- أما البيت والوكالة فهما لخزانة الباشا، وتلك الفتاة، التي تشك فيها مكافأة لك، أنت حر التصرف فيها، هي ملكك من الآن.

- والأخرى؟

- لا شأنك لك بها.

فهم عز الدين مقصد قائده، ابتسم ونظر إلى الخادم، الذي لم يتحرك، حتى أشار له سيده بطرف خنصره، انطلق ليضم عائشة للمنتظرات مع القوة في الخارج، وقف عز طالبًا الانصراف، فسمح له، اتكأ صالح قوش على أريكته، وذهب في نوبة ضحك عالية، وحلم الولد يرواده بشدة، لعله يُرزق به من تلك المصرية الباقية في الحرملك، واندفع عز خارجًا منتظرًا أحد الأغوات ليعطيه مكافأته من سيدة الحرملك على صنعته التي دبرها وأدارها بنفسه.

*****

(19)

زيت السمسم

رفرفت الأعلام في ثقة وتيه فوق القصر الخشبي، لو تعلم مدى فشل صاحب القصر ما حركت ساكنًا، ولبقيت ساكنة دون حراك، في بهو كبير زُين سقفه بثريات ذهبية لامعة، وفُرشت أرضه بسجاد حريري بألوان زاهية بدرجات مختلفة ما بين الأحمر والأزرق؛ جلس «الألفي» بك على أريكة دقيقة الصنع، وحوله بعض من رجاله، عليهم أن يسرعوا في اقتحام دمنهور، لكن كيف لهم ذلك وقد تحصن أهلها خلف سورها الجديد؟! نصبوا المدافع على أبراجه، وزاد الأمرّ صعوبة مع الخندق الذي يحيط بالمدينة؛ وهي في مكانها المرتفع، تحير رجال «الألفي» مما يحدث، جلسوا مع قائدهم يتناقشون، هم يعلمون جيدًا؛ أنّ السيد «عمر النقيب» يمدّهم بالبارود، والذخيرة، والمؤن، والرجال،

ويثبتهم بكلامه الحماسي، يعشمهم بالجنة إذا قُتِلوا، وبالكرامة، والعزّة ومستقبل أفضل لو كان النصر حليفهم.

في مكان بالقرب من القصر وقف «أحمد» أمام وعاء نحاسي كبير، بناء على طلب من صاحب القصر عليه أن يعدّ العشاء له، أرز متبل، ولحم غنم، وطواجن خضار بمذاق حار، هذه ليست المرة الأولى التي يعدّ فيها طعام العشاء للبك وقادة جيشه، وفي كلّ مرة لا يعرف ولا يتذكر إن كان قد أضاف السم أم وضع زيت الزيتون الذي يحبّه سيده، في اللحظات، التي يريد أن ينفذ فيها المهمّة الموكلة إليه؛ تتسارع دقات قلبه؛ يعلو الطنين في أذنه، وتزوغ عيناه، ويجف حلقه، ينسى ما قدم من أجله، حتى أنّه لا يستطيع أن يتذكر إن كان قد احتفظ بالزجاجة التي أعطاها له «مقبل» أم تخلص منها قبل أن ينضم لتجريدة كبير المماليك.

تطارده الكوابيس في اللّيل، دائمًا ما يحلم؛ بأنّ رجال «الألفي» يحيطون به من كلّ جانب، ويقيدونه في نخلة، ويشعلون نارًا تحته لتلتهمه ببطء من قدميه، وحتى منبت شعره، يشعر بالنار تُذيب جلده ولحمه، يستيقظ مذعورًا، كلّ ليلة يحلم الحلم نفسه، أصبح يخاف من النوم، ومن الأكل، ومن الهواء الذي يتنفسه، يطارده القلق ويتملكه التوتر.

ما يهوّن عليه الأمرّ أنّ سيده أشاد بطعامه، وأنّه ينتظر أن يحضر قنصل انجلترا قريبًا، وعليه أن يعدّ العدّة لهذا اليوم.

أحاط اليأس برجال «الألفي»، رفض السيد «عمر النقيب» وآخرون من زعماء الأزهر أن يقفوا بجوارهم من قبل، طلب زعيمهم منهم التوسط بينه وبين الباشا، أبوا ذلك بجرأة تصل حدّ التبجح، خذلوه؛ لم يكتفوا بذلك، بل قدّموا الدعم لغريمه بكلّ الطرق، بالرغم من أنّه يفرض الكثير من الضرائب، ويجمع أكياس المال والعلف والمحاصيل من كلّ بلدة يمرّ بها رجاله، يبتدع قروضًا من الغلال والحبوب، يحصّل الجمارك على البضائع مرّات عديدة، وشيوخ الأزهر لا يعترضون مطلقًا، بل على العكس يؤيدونه، اشتد النقاش بين الرجال، كلّ هذا والبك صامت، تنحنح «محمد بك الألفي» أخيرًا ليصمت الجميع..

- هل تعلمون ماذا قال الثعلب الألباني عن المصريين؟

تجول بعينيه بينهم؛ منتظرًا أن يجيبه أحدهم، لم يردّ أحد على سؤاله، أضَّهُ أمرهم، هزّ رأسه متعجبًا من جهل أتباعه، وعدم متابعتهم للأحداث، وكأنّها لا تهمهم أو تخصهم، اعتدل في جلسته وهو يجيب عن سؤاله:

- المصريون كالسمسم، لابد من الضغط عليهم، وعصرهم لتحصل على الزيت.

تبسم أحد أتباعه والاندهاش ينضح من نبرة صوته:

- هل قال هذا؟!

- نعم.

- لقد أصاب كبد الحقيقة، لكن كيف عرف طبعهم وهو لم يكمل هنا إلا سنوات قليلة؟

- لا لم يصب إلا كبد زيفه، كنت أعتقد نفس اعتقاده هذا أيام رعونتي، كبلتهم بالحديد، أذقتهم شتى أنواع العذاب والظلم، والنتيجة كما ترون الآن، لا أحد يمدّ لنا يد العون، يتعاملون معنا وكأننا مرض عضال برأوا منه ولا يريدون أن يعاودهم مرّة أخرى.

- كيف يجب أن نعامل هؤلاء؟ إنهم جنس فلاحين لئام أنجاس؟ وهم لا يُجدي معهم إلا القسوة فلو شبعوا لافترسونا.

- هذا خطأ جسيم، لو كان عندك بقرة؛ لا بد أن تطعمها وتغذيها وتريحها حتى تتمكن من حلبها وتعطيك إنتاجًا وفيرًا، لو كتب الله لي حكم البلاد والله لأملأنّ ربوعها عدلاً.

- أدعو الله أن يتحقق هذا قريبًا.

- سيحدث، كما سخر الله لنا الإنجليز لطرد الفرنسيين، سخرهم لمساعدتنا الآن لنعتلي عرش مصر.

تدخل أمير آخر في الحديث:

- لقد كنت على وشك أن تعتلي العرش لولا تلك الخلافات اللعينة التي وقعت بين الباب العالي والإنجليز، هناك سؤال يحيرني يا مولاي.

- ما هو؟

- لماذا يساعدنا الإنجليز؟

- نؤمن لهم طرق تجارتهم الآتية من الهند فقط، كما أنّهم أصحاب دين سماوي مثلنا، ليسوا بكفرة مثل الفرنسيين، ينادون بشعارات كاذبة جوفاء لا معنى لها.

- حرية وإخاء وعدالة؛ ليست بجوفاء يا مولاي.

احمَرَّ وجه «الألفي» غاضبًا، كيف لأمير مهما كانت قوته أن يردّ عليه ويعارضه هكذا، وهو أحد تلاميذه، لو استمروا هكذا لانفلت الزمام من يده، تذكر كيف استضعفه المماليك عندما قرر الاعتزال، ردّ بحدة ليئد الفتنة في مهدها:

- عندما ترددها فقط ولا تطبقها تصبح جوفاء، لا قيمة لها، علينا أن نتحد الآن، نحن لا نحارب المصريين، لكننا نحارب غريبًا أتى يستأثر بخيراتها، ويلفظنا كخبث أصاب البلاد، نحن من حكمنا تلك البلاد بطولها وعرضها لما يقارب من ستة قرون، ليخرج علينا رجل بلحية قميئة ويطردنا من إرثنا الذي ورثناه كابر عن كابر، والله لن يحدث هذا مادمت على قيد الحياة.

قام أمير آخر وتوجه لمعارض «الألفي»، كان الغضب قد حاصره هو الآخر فصاح في وجهه:

- اسمع يا أمير طبلخاناه[9](1) أنت، من قبل اعترضتم، وشققتم عصا الطاعة، قل لي ماذا كانت النتيجة؟

لم ينطق المعارض، فاستكمل الأمير كلامه بعد أن أمسك بمقبض سيفه:

- سأخبرك أنا، أغرتكم أوسمة ونياشين العثمانيين وكلامهم المعسول، وهم كما قال لكم كبيرنا هذا من قبل: إنّهم يبغضوننا وينتظرون الفرصة ليتخلصوا منا ليخلو لهم خير هذا الإقليم، ويصبح لهم وحدهم، هل نسيتم ما

9 - أمير تحت إمرته غالبًا أربعين فارس. أمير من الطبقة الثانية. منهم يكون أرباب الوظائف وكبار الولاة.

فعلناه بهم؟ منعنا عنهم الخزانة، ولم نمتثل لأوامرهم، إن كنتم قد نسيتم؛ فهم لم ينسوا، فانتبهوا لكلّ حرف يقوله رئيسنا، والزموا صفه، ولا تكثروا من الجدال.

وقف أمير آخر وقال بصوت به نبرة سخرية:

- تتذكرون جيدًا عندما حذر عظيمنا من العثمانيين، وأثبتت الأيام بعد نظره، اغتر سفهاؤنا بكلامهم الخادع، وذهبوا كالبُلهاء لسفينة الوزير العثماني، فتكوا بهم، ولولا تدخل الإنجليز لقضى الأتراك عليهم جميعًا، ولولا حكمة ودهاء أميرنا هذا ما خرجنا بثرواتنا، ونسائنا بعد أن أقنع محمود أفندي كاتب الوزير بأن يجمع له من الصعيد أموالاً ضخمة مات أصحابها، هل تتذكرون كيف خرجنا؟ خرجنا معززين يتبعنا الطبل والزمر، قُتل من قُتل في سفينة الوزير بعد ذلك، ولا تغتروا بنصركم في النجيلة، الآن هناك ذئب بعقل ثعلب، وفروة حمل كلّ يوم يزداد قوة، وهو ينافسنا فإياكم والفُرقة وكثرة السؤال وإلا ضعنا كما ضاع الذين لم يستمعوا لنصيحته.

لم يكملوا نقاشهم، فالسماط جاهز الآن، ووقت الطعام لا يجوز الكلام، ورائحته الشهية كفيلة بإيقاف أيّ جدال أو نقاش مهما كانت أهميته.

تجمع الرجال حول المائدة، سال لعابهم من رائحة الأصناف الشهية، رفض أميرهم أن يمدّ أحد يده وطلب مثول الطباخ بين يديه، ثوانٍ قليلة وكان «أحمد» يقف أمامه، والخوف يكاد يكتم أنفاسه، نظر له نظرات كادت أن تخترق لحمه لتذيب عظامه، لا بد أنّه اكتشف أمر السم الذي لا يعلم إن كان يدسه أو لا، ربما وشى به «مقبل» الوغد مقابل بعض الذهب، فمثل هذا اللئيم لا آمان له، لم تطل نظرات «الألفي» له وبكلّ حدّة سأله:

- كم مرة أخبرتك أنني لا أحبّ هذا القرع في طعامي.

ارتاح «أحمد» قليلاً، التقط أنفاسه، التي كادت أن تنحشر في زوره منذ قليل، وبسرعة وضع طواجن من الخضار أمامه، وهو يبتسم ويهمس في أدب:

- لقد أعددت البعض لحضرتكم دون قرع، فلقد أوصاني أحد الأمراء هنا بأنّه وباقي الأمراء يحبّونه، لذلك جهزت ما يوافق طلبكم وطلبهم.

- أحسنت صنعًا.

مدّ يده بعد أن سمى بالله، ومن بعده اندفع الرجال في حماس، عاد «أحمد» أدراجه، وقد نال القلق والخوف منه ما نال، لم تعد ساقاه قادرة على حمله، ارتمى على

فرشته وهو يلهث، شدّ غطاءه على وجهه محاولاً النوم، لكنه دائم العناد معه، وعندما يصل يأتي بصحبة الكوابيس الحارقة، تبًا للألفي وللباشا ولمقبل ولكلّ من فكر أن يعتلي حكم هذه البلاد البائس أهلها، يقاتلون بعضهم حول من يعتلي الحكم، ويدفع أمثالي الثمن من أموالهم، وشرفهم وأرواحهم.

*****

(20)

أولاد البلد

طال الحصار، ولم يعد البقاء يجدي نفعًا، كلّ يوم يمرّ على أحمد يزيد توتره، التوتر الأكبر كان من نصيب سيده، شكك فيه بعض قواد جيشه، وانسحبوا بجنودهم ولاحت في الأفق سحابات من التذمر بين باقي الجنود والعربان، أوشكت مؤنهم على النفاد أو نفدت بالفعل، وكلّ يوم ازدادت دمنهور تحصنًا، أطلق الألفي يد رجاله في القرى القريبة يجمعون ما يستطيعون جمعه من علف وغلال.

شاهد أحمد قرى تُنهب بأمّ عينيه، فلاحون فقراء لا يملكون شيئًا إلا بقرة هزيلة أو غنمات قليلة، تؤخذ أمام أعينهم ولا يستطيعون الدفاع أو الاعتراض، حتى الدجاجات جُمعت، هدموا بيوت من شكوا فيهم، نُهبت المحلات رغم فقر بضاعتها، ولو حاول أحدهم أن يخفي شيئًا من قوت عياله؛ كان الجَلد بالسياط

أقل عقاب يناله، دمعت العيون، وجاع الصغار والكبار، مات من لا يستطيع جسده الهزيل أن يقاوم الجوع أو الجلد، كلّ هذا من أجل أن يعتلي شخص العرش، تمنى وقتها أن يمتلك سمًّ مقبل، لا ليضعه لهؤلاء الأوغاد، بل ليحتسيه كلّه حتى آخر قطرة، ينهي حياته ويتخلص من آلامه، قلبه الضعيف لا يتحمل كلّ ما رآه، لم يعد قادرًا على أن يرى كلّ هذا الظلم، بحث عنه في كلّ مكان يمكن أن يكون قد خبأه فيه، لكن لا جدوى من البحث، كلّ ما عليه الآن هو أن يُتبل تلك العنزات، ويجهزها للشواء وبسرعةٍ؛ فالسادة جائعون.

بعد العشاء الدسم قرر الألفي أن يتريض قليلاً، السماء صافية والهواء نقيٌّ ومنعشٌ، قد يساعده صفاء الجو على التفكير في مشاكله الجسام، جيشه يتآكل، أغبياء وقصيرو النظر ينظرون تحت أقدامهم ويقفون بجانب من يدفع، لا من يدافع عن مصالحهم، وهو قد أوشك على الإفلاس، عليه أن يحقق أيّ نصر حتى لو كان شكليًا، إن لم يفتح دمنهور ويدخلها؛ سيتفرق من بقي منهم معه، تلاحقهم الهزائم والفشل في الآونة الأخيرة، وصلت له أخبار هزيمة «رجب أغا» وياسين بك في المنيا، لقنهم عابدين بك درسًا في القتال، لو كانا انضما إلى جيشه؛ لقويت شوكته، ولتمكن من اقتحام ذاك الخندق اللعين، الذي يلتف حول دمنهور، وبعدها كان من السهل عليهم أن يدكوا أسوارها، لكنّها الفُرقة، المسمار الأول في نعشهم، ملأ رئتيه

بالهواء العليل، وحزم أمره بأنّ لا عائد من هذا الحصار، غدًا ينهيه ويعود أدراجه منتظرًا أن يبرّ الإنجليز بوعدهم، ويرسلون له التجريدة في أقرب فرصة، وعن قريبٍ سيعتلي عرش مصر، كما أنّها ستكون فرصة رائعة لجنوده، فسيحتكون احتكاكًا مباشرًا بالعسكرية الحديثة، التي يحاول جاهدًا تعليمها لهم، لكنهم اكتفوا فقط بالشكل الخارجي لها.

قبل أن يتنفس الصباح، كان القصر الخشبي مفككًا ومحملاً فوق الجمال. وقف أحمد يشاهد العمال وهم يفككونه بسهولة، ويحملونه فوق الإبل في سرعة ونظامٍ، إنّه لمن العجائب، قصر يُبنى ويفكك في سويعات قليلة، ويُنقل بكلّ سهولة ويسرٍ، حقًا إنّ هؤلاء الأمراء يحيَون حياة رغدة، لا ينقصهم شيء من متع الدنيا إلا ونالوه.

وقف رجال الباشا على أبراج المراقبة، متحصنين بسور مدينتهم، يراقبون الحركة في معسكر الألفي، تهامسوا فيما بينهم متسائلين، هل سيرحل هؤلاء اللصوص فعلاً؟ أم أنّها مجرد خدعة من كبيرهم؟ لم يهتموا بالإجابة على تساؤلاتهم، فلو كان راحلاً لعادت الحياة لطبيعتها في بلادهم، ورجع أولاد البلد إلى القاهرة من حيث أتوا، فشجارهم لا ينتهي، وبذاءتهم لا حدود لها، ولو كانت خدعة من زعيمهم؛ فهم مطمئنون خلف أسوارهم القوية، ويكفي دعاء الصالحين لهم ليردّ عنهم كل شر.

كجراد جائع جامح لا حدود لجشعه هبط جيش الألفي دون رحمة على قرية صغيرة ودخلوها دون أيّ عناء، دقائق قليلة وقلبوا وردان[10] رأسًا على عقب، اقتحموا البيوت دون استئذان ونهبوا ما فيها من طعام، هاجموا الزرائب وسحبوا ما فيها ليضموها لقطيعهم، لم يكتفوا بذلك، فطالبوا الأهالي بالدراهم، ومن أين لهؤلاء المساكين بها؟! لم يترك الملتزمون لهم ما يكفي معيشتهم، جمعوا مقدمًا ضرائب السنة القادمة، تلبية لأوامر الباشا، ليأتي هؤلاء المجرمون لينتزعوا من أفواههم ما لم يكن يشبعهم.

من فوق تلة صغيرة مشرفة على القرية صلَّى أحمد الضحى، ودموعه تبلل الثرى، ووقف يشاهد ما يفعله مماليك الألفي، الدخان يتصاعد للسماء، أحاط الفزع سكان المكان، انفطر قلبه على امرأة صغيرة، دُهِس ابنها تحت سنابك خيل الجنود حتى خرجت أمعاؤه، جلست بجانبه تلملم أشلاءه، تصرخ وتنثر التراب على رأسها، نزل جندي من على فرسه، ووقف بجوارها وهو ينظر لها في عجبٍ، على ماذا كلّ هذا العويل؟! إنّه مجرد طفل وقد أرحناه من تعب هذا الحياة القاسية، لقد قدمنا لكِ وله معروفًا يجب أن تشكرينا عليه، لا أن تنوّحِي هكذا، ألا يُقتل منا نحن من أجل أن يحكمهم رجلنا؟ هكذا حدّث نفسه،

10- إحدى قري مركز أمبابة بالجيزة تنسب إلى وردان مولى عمرو بن العاص.

انحنى عليها ونزع قرطًا نحاسيًا كان في أذنيها ظنًا أنّه ذهب، يا لغبائكم أيّها القُساة! كيف لقوم لا يجدون ما يكفي قوت يومهم أن يكتنزوا الذهب أو يمتلكوا منه ولو حتى القليل؟! إنّه الغباء الذي يؤلَد من رحم الطمع، والظلم هو الابن الشرعي للاستبداد، نزعه من أذنيها وشقهما من أجل قطعة من الصفيح، عندما علم أنّه ليس إلا قرطًا نحاسيًا رخيصًا، ألقاه في وجهها بعد أن كال لها الشتائم، وبصق في وجهها الدامي أكثر من مرّة، بعد عدة ركلات في جانبيها لترقد هي الأخرى قتيلة بجانب فلذة كبدها، يعرف أحمد هذا المملوك جيدًا، إنه شيروان شاب في مثل عمره، جشعه لا حدود له، ذو شره عظيم للأكل، في كلّ ليلة يحضر هذا الشيروان، ويوقظه من النوم ليطلب مزيدًا من الطعام، ومهما أكل لا يشبع، لم يترك مكانًا نزل فيه إلا وكان أول من يتحرش بالنساء، ويحاول اغتصابهن، وكثيرًا ما تنجح محاولاته.

كيف يمكن للألفي أن يحقق العدل في ربوع البلاد كما كان يتشدق دائمًا؟! لقد سمعه أحمد أكثر من مرّة وهو يُقسم بأنّه يحبّ هذا الشعب، وسيعمل جاهدًا من أجله، إنّه مجرد كاذب أفّاقٍ، وما هو إلا ثعبانٌ خطيرٌ بعيون ذئبٍ، وأنياب ضبعٍ وذيل عقربٍ، جمع كلّ شرور العالم بين حاجبيه، يتمسح في رداء العلم، الذي اغترف منه غرفة أو أقل، بعد أن شاب شعره، وهل يُمكن لأحد أن ينسى تاريخه الدموي؟

في هذا اليوم جدّ أحمد في البحث عن زجاجة السّم، لا ليشربها كما كان ينوي من قبل، بل ليصبها في حلق الألفي ولو بالإكراه، لكن الحظ لم يحالفه كعادته، فلم يجد السّم، لا بد أن هناك بديلاً، فعلى حدود هذه الحقول والترع، هناك ما هو أقوى من سمّ مقبل، سيجمع بعض الفطر السامّ، ويضيفها في عشاء هذا السفاح، لو مات لتفرق شمل هذه الشرذمة الضالة.

كما بدأ الاقتحام فجأة انتهى كذلك، ترك المماليك الشوارع للأهالي ليجمعوا جثث موتاهم، وإلا سيتخلصون منها في الترعة، وعلى عجلةٍ غسلوا موتاهم، وصلوا عليهم، وذهبوا بهم بعيدًا خارج البلدة لدفنهم، أنهوا مراسم الدفن، لم يقيموا ليالي العزاء، دعوا لهم دعاءً حارًا بأن يغفر لهم الله ذنوبهم، وأن ينتقم لهم ممن قتلهم دون ذنب، لم يعودوا لديارهم، بل فروا في بلاد الله، عندما لا ينبت في حضن الأمّ إلا الأشواك؛ يصبح هجرها فرض عين، هكذا تهامسوا فيما بينهم وهم يعبرون النيل نحو المنوفية، أما من فضّل الأشواك فرّ إلى الحقول على أطراف القرية.

احتجبت الشمس خجلاً مما فعله بنو البشر، لكن على أحمد أن يقوم بعمله، الغلال متوفرة، اللحم كثير، والخضار الطازج جُمع من الحقول القريبة، أشعل النار تحت الأواني الكبيرة، وبدأ في عمله، يوم كئيب وجو خانق، لا شيء يدعو للبهجة

التي يسمعها من حوله، هؤلاء القوم يجدون هناءهم في شقاء الآخرين، أنهى عمله، وأكل المحاربون وشبعوا، لكنهم لم يشبعوا من دماء ضحاياهم بعد.

حان وقت القصاص، سيجعل أحد وجباته القادمة سيف الحق، وسينتقم لكلّ الأرواح المعذبة التي أنهكها الظلم والقهر والاستبداد، سيتبل اللحم بالأعشاب السامة، سيطهوها بنيران الكراهية سيغرفها في صحون الحقد، سيتناولها أستاذهم وكبار قواد جيشه، ستتقطع أمعاؤهم، ستنزف حتى الموت، وقتها سيشعر بالرضا حتى لو كان الخازوق عند تل العقارب نهايته المحتومة.

في الظلام، عبر الحقول، بدأت رحلة البحث، ممسكًا بمصباح زيتي صغير ليرشده، من الصعب أن تجد طلبك إذا كان الفلاحون ماهرين، يتخلصون أول بأول من تلك الأعشاب السامة، حتى لا تتناولها بهائمهم عن طريق الخطأ، عليه أن يبحث بدقة وعناية، حتى يجد مبتغاه، وأخيرًا عند حقل بعيد في الطرف الغربي وجد القليل من طلبه، اقتلعه ووضعه في كيس قماشي علقه في خصره، عاود البحث مرّة أخرى فالأعشاب التي وجدها ليست بالكمية الكافية، حول جذع نخلة قصيرة بالقرب من جرف قناة ري صغيرة وجد كمية لا بأس بها من الفطر السام، سيضعه في طواجن الخضار التي يحبّها الأوغاد، ولن يشعروا بوجودها، وسينتهي الأمر.

جمع الفطر، ووضعه في كيسه، وقف واستدار، ليجد أن موته يبدو أقرب له من الكيس المعلق في وسطه، شيروان يقف خلفه، والحنق سيطر عليه، أمسك بتلابيبه وهزّه بعنف وهو يصرخ في وجهه:

- ماذا تفعل هنا أيّها الوغد؟ لماذا غادرت المعسكر تحت جُنح اللّيل يا حقير؟ هل واعدت إحدى مومسات هذه القرية؟ كم ستدفع لها؟ من أين أتيت لها بالمال؟ أمّ أنّك ستمنحها بعض الطعام مقابل مضاجعتها؟ لا بد أنّه في هذا الكيس، أعطني إياه الآن فأنا جائعٌ للغاية، لماذا لا تجيبني أيها الأبله؟

لم يتوقف شيروان عن هزّه بعنفٍ، حتى بعد أن توقف سيل أسئلته، كان من الواضح عليه أنّه ثملٌ، رائحة الخمر تفوح من فمه الواسع، إنّها نفس الرائحة التي كان يشتمها من فم عالم بونابرته «ڤانسان»، الذي خدمه لعامين، لكنه عندما كان يثمل غالبًا ما كان يصمت أو يبكي، وبعد أن يفيق يشعل شمعة أمام تمثال للمسيح وهو مصلوب، يجثو على ركبتيه، ويتمتم بكلمات مبهمة، والدمع يفيض من عينيه، أما هذا العربيد لا تعرف الدموع طريقًا لعينيه، لا يكف عن الصياح، سقط أحمد على الأرض، جثا مهاجمه على ركبتيه لينزع منه الكيس، برز مقبض الخنجر الصغير الذي علقه النهم في حزامه، نزع شيروان الكيس من خصر أحمد قبل أن يفتحه؛ انتزع الملقى على الأرض الخنجر

وبسرعةٍ غرسه في صدر الجندي المملوك، ليخرّ على الأرض مخضبًا في دمه، نهض ماسك الخنجر وطعنه طعنات عديدة حتى تأكد من موته، وترك أداة قتله مغروسة في صدره، والكيس في يديه وهرول عائدًا لينام، أو ليتعايش مع كوابيسه المرهقة المؤلمة.

*****

(21)

العفو

تخلص أحمد من ملابسه فحرقها حتى لا يخرج له عفريت شيروان ويخنقه، لكنه لم يتخلص من خوفه، لم يذق النوم طوال اللّيل، كلما حاول أن يغمض عينيه تخيل شيروان يُقيده إلى النخلة القصيرة، التي قتله تحتها، ويتناوب على اغتصاب أخته، وابنة خالته أمام عينيه، صراخهما يصمّ أذنيه، وهو عاجز أن يفعل لهما شيئًا، طال ليله وجافاه النوم، لازمته كوابيسه ولم تفارقه.

سيكتشفون غياب رفيقهم، وكيف لا يكتشفون وهو أكثرهم ضجيجًا؟! ومع قليل من البحث سيجدونه ملقى تحت هذه النخلة اللعينة، تبًا للشيطان لقد نسي كيسه القماشي في يد مقتوله! سيتعرفون على قاتله بمنتهى البساطة والسهولة؛ فالكيس من نفس قماش جلبابه، سيصلبونه ويقطعون أطرافه قبل أن ينهوا حياته، ربما علقوه على مشنقة وأشعلوا النار من تحته؛ لتأكل أطرافه، وبالتأكيد

سيجدعون أنفه ويقطعون أذنيه ويفقأون عينيه قبل أن ينفذوا فيه الإعدام، تجمد الدم في جسده، امتقع لونه وغارت عيناه، لقد فقد حياته وشبابه مقابل عنيد لا يساوي شيئًا، لو كان ذلك مقابل رأس الألفي لكان له الفخر، من بضع سنين حسد الحلبي على ميتته، لقد فاز بالجنة والمجد، لكنه سيموت بطريقة أبشع دون عائد يذكر.

غادر فرشته بهدوءٍ، وحزم أمره على الهرب، سيتسلل تحت جنح اللّيل من المعسكر، سيختبئ في الحقول يومًا أو يومين، وهناك سيتدبر كيفية خروجه من هذه المنطقة؟، أزاح طرف باب خيمته، الظلام دامس، الهواء بارد، ارتجف جسده، تلفت حوله، ليس هناك شيء إلا صوت مساعده عُكرش غارقًا في النعاس في خيمة المؤن المجاورة، شاب لا علاقة له بالمطبخ إلا ازدراد ما يجده في الأواني، أو ما تبقى من وجبات السادة، وجده يعمل في مطبخ الألفي قبل أن يلتحق هو به.

في الطرف الآخر من المعسكر خيمة الألفي، مصباح شحيح النور يرمي بالظلال أكثر من النور داخل الخيمة، لعله نائم الآن يحلم بعرش مصر، تمهل قليلاً قبل أن يطلق لساقيه العنان، داعبته فكرة مجنونة، هو في كلّ الحالات مقتول دون رحمة، لماذا لا يحقق هدفه الآن؟ كلّ ما عليه أن يزحف للخيمة المضيئة، وبهدوء ينحر الزعيم، لو تمكن من الهرب بعد ذلك خير وبركة، وإن لم يستطع فليكن لموته ثمن مناسب، نظر نحو السماء السوداء تمامًا، وكأنّ

النجـوم قـد شـرقت أو سـافرت لسـماء أخـرى، هـل سـتنير فوقـه مـرة أخـرى؟ تسـاءل وفـي قلبـه غصـة.

تراجـع عـن فكـرة التّخلـص مـن الألفـي، فـلا بـد أن هنـاك حراسًـا يقفـون بالقـرب مـن خيمتـه، سـيقبضون عليـه قبـل أن يقتحـم عريـن الأسـد، ويقدمونـه قربانًـا لطاغوتهـم، عليـه أن يتحـرك بسـرعة، ودون أيّ جلبـة حتـى لا ينكشـف أمـره، قبـل أن يخطـو خطـوة واحـدة انفتـح بـاب خيمـة الزعيـم، وخـرج منهـا شـبح، تسـمر فـي مكانـه، لـم يقـدر أن يحـدد فـي أيّ اتجـاه يمشـي الشـبح، ثـوانٍ قليلـةٍ كانـت يـده علـى كتفـه تجـره برفـق نحـو الخيمـة المضيئـة.

اكتشـفوا فعلتـه دون شـكٍ، كلّ مـا عليـه أن يعتـرف أمـام أسـتاذهم، سـيصدر الحكـم بطريقـة قتلـه قبـل أن يكمـل اعترافـه دون إرادة منـه مشـى مـع صديـق شـيروان المقـرّب، الـذي لـم ينبـس بكلمـةٍ، نظـرات عينيـه كفيلـة بإثـارة الرعـب فـي قلـوب الموتـى.

فتـح الجنـدي بـاب الخيمـة، وتقـدم داخـلاً، لحظـات ثقيلـة مـرت علـى أحمـد كسـاعاتٍ طـوالٍ، يتهامسـون داخـل الخيمـة فـي طريقـة إعدامـه، حقًـا هـو لا يسـمع مـا يقولـون، قلبـه يرشـده وهـو أبـدًا لـم يخدعـه يومًـا، سـمع صـوت الألفـي كهزيـم الرعـد ينـادي عليـه، ارتجـف بدنـه، وسـابت مفاصلـه، وهـو يجرجـر قدميـه داخـل الخيمـة، نظـر الأسـتاذ لـه بطـرف عيـن أجهدهـا السـهر، وقـال بصـوتٍ متعـبٍ:

- سنرحل مع بعض جنودنا قبل الفجر، سنصطحبك معنا، اذهب وجهز الأدوات اللازمة لطبخ هذا الطعام الغربي، إن لم يعجب طبخك ضيفي تأكد أن نهايتك قد حانت.

التفت لجندي آخر على شماله، وبدأ يعطيه الأوامر، وقف أحمد مذهولاً.. لا يصدق ما يسمع، لم يكتشفوا بعد مقتل صانع الجلبة في المخيم، أو ربما اكتشفوا والأمر لا يهمهم، هم معتادون على ذلك، يقتلون ويُقتلون، صاح جندي على يمين الألفي به:

- لماذا تقف هكذا؟ هيّا بسرعة جهز عدتك، الوقت يداهمنا أيها المتخلف.

خرج من الخيمة، أسرع نحو الخلاء، كان على وشك أن يبول على نفسه، شعر ببرودة مفاجئة على قفاه، بجانب شجرة وقف، ارتعش جسده، والبول لا يتوقف عن الخروج، وبسرعة ذهب لخيمة المطبخ، أشعل المصباح المعلق في وسطها، وجمع كل ما يحتاج من أدوات ومؤن، أخرجها من الخيمة، حزمها ونقلها لعربة صغيرة، شُدَّ عليها حصان عجوز ولم يطل انتظاره، ما هي إلا لحظات وتجمع الجنود وعلى رأسهم الألفي بملابسه الفخمة، وسيفه الكبير بمقبضه الذهبي والمزين بفصوص من الياقوت، تعالى صهيل الخيول معلنة بدء الرحلة لولا دخول جندي يسحب حصانه خلفه وعلى ظهره جثة مغطاة بقطعة من الخيش، اقترب الجندي من قائده وهو مطأطأ الرأس، سارع الألفي بسؤاله:

- من هذا؟

- شيروان.

ترجل الألفي من على جواده، رفع الخيش، كانت جثة شيروان عارية تمامًا، عاود استجواب الجندي:

- أين وجدته؟

- هناك في شمال القرية تحت نخلة، يبدو أن بعض الفلاحين اجتمعوا عليه وقتلوه ثم سرقوا ملابسه، وقطعوا علامة رجولته ووضعوها في فمه.

أعاد الألفي النظر إلى جثة شيروان، تملكه الغضب تمامًا، وحاول أن يسيطر على أعصابه، لكن هيهات، فعندما يتملكه الغضب لا تجدي أيّ محاولة لكبح جماحه، نظر نحو السماء قبل أن ينطق بحرف، وكأنه يستحضر روح القتيل ليسألها عن ما يرضيها كثأر لمقتله:

- بعد أن تنتهوا من غُسله والصلاة عليه ودفنه، ابحثوا عن أيّ فرد من أبناء هذه القرية التعيسة لا بد أنه القاتل، لا تقتلوه، اجعلوه يتمنى الموت ولا يدركه، وإن وجدتم أكثر من واحد فهم شركاء في الجريمة، أطيلوا عذابهم قدر المستطاع، اجعلوهم مثلاً وعبرةً لمن لا يعتبر، وفي النهاية اقتلوهم بالتنصيص.

قفز برشاقة على صهوة جواده، تحرك الجيش الصغير المصاحب له على مهل وخلفهم أحمد جالسًا بجوار أدواته، امتقع وجهه عندما علم أنهم عثروا على جثة هذا المملوك الوغد، تسارعت أنفاسه وجف حلقه، سقط قلبه عند كعبه، شعر وقتها أن ملك الموت يحوم فوق رأسه يكاد ينقضّ عليه، لكنّ دقات الطبول شتَّتَتْ كل الأوهام التي حامت أمام عينيه، قاد العربة عبد ثرثار، لم يتوقف عن الحديث مع غُكرش، الذي جلس بجواره.

لم يوجهوا له أيّ اتهام، عثر عليه فلاح أو أكثر من أهل القرية، خلعوا ملابسه وسلبوه سلاحه، وبالتأكيد لم يتركوا الكيس القماشي، ولم يكتفوا بذلك لكنهم قطعوا قضيبه، وأطعموه إياه، ارتاح لهذه الفرضية، تنفس الصعداء وراح في نوم عميقٍ جوار الحلل المعدنية التي زاد ضجيج اصطكاكها ببعض، النوم سلطان، له الكلمة العليا، وما علينا إلا الطاعة.

ساعات من السفر المرهقة، حتى وصلوا حوش عيسى، توقف الجند بعدهم بقليل، وصلت عربة المطبخ وعربات أخرى للفراشين، في خلال دقائق قليلة كانت خيمة مربعة مزخرفة بألوان زاهية منصوبة ومفروشة، جلس الألفي أمامها يتابع إنشاء معسكره الصغير. في أقل من ساعة وقبل زوال الظل كان كلّ شيء جاهزًا، دخل الأمير خيمته يدخن نرجيلته، تفرق الجنود في خيامهم ليستريحوا وأسرع أحمد في تجهيز وإعداد المطلوب.

سويعات قليلة ووصلت لمسامعه دقات الطبول، لقد وصل أحد الضيوف بكلّ تأكيدٍ، أسرع يستكشف الأمر، رجال بيض يضعون قبعات غريبة على رؤوسهم، يحيطون برجل نحيف، يميل للطول قليلاً في مثل لون بشرتهم المشربة بالحمرة، يضع نظارة ذات إطار ذهبي على أنفه وينظر حوله في ثقة، خرج كل من دخل خيمته منذ قليل، اصطفوا في طابورين، تلمع سيوفهم في شمس العصر، واقترب من خيمة الألفي، الذي وقف متبسمًا خارجها في استقبال القنصل الإنجليزي، تصافحا ودخلا وحدهما الخيمة ومعهما المترجم، دخل رجال القنصل وكبار جنود الألفي في خيمة أخرى كبيرة، ينظرون في إعجابٍ إلى المسدسات المزخرفة المتدلية من أحزمة الأوربيين، أسرع أحمد ليستكمل عمله، جمع كلّ خبراته اليوم، ونفذ وصفات زوجة العالم الفرنسي بكلّ دقة.

وُضِع السماط على منضدة مرتفعة، فهو يعلم عاداتهم كلّها، ورصت الأطباق بطريقة معلومة؛ بجانبها الملاعق والشوك والسكاكين الفضية مرصوصة بطريقة بديعة، رائحة الطعام أثارت شهيتهم، ومع ذلك لم يكن لها أيّ تأثير على قادة الشرق أو أميرهم، الذي جلس على رأس المنضدة ليشارك جناب القنصل وجبته على مضض منه، ومع ذلك تكاد الفرحة تقفز من عينيه، ظن أحمد أن عمله يعجبه، لكنه كان سعيدًا بالرسالة الصادرة من البلاط العثماني، بالعفو عن الأمراء المصريين.

على الفور وما إن انتهوا من طعامهم حتى أغدق على أحمد بكيسٍ من الدراهم، لم يصدق نفسه فهو لم يحلم يومًا بأن يمتلك مثل هذه الثروة، أسند ظهره إلى عامود خيمته، وأخذ يهز الكيس بين يديه، ويستمع لصوت الدراهم وهي تتراقص بداخله، وقد عاودته حالة من الحزن على أهله وغيابه عنهم.

قُرِعت الطبول مرة أخرى لتتمازج مع صوت طلقات المدافع في صخبٍ مفزعٍ، خرج الألفي من خيمته، مشى وسط ساحة معسكره كطاووس مغرور، وحوله جنوده فرحين يودعون الأوربيين بحرارةٍ، لم يكتفِ بهذا بل أرسل معهم كبار رجاله ليصطحبوهم للصعيد، العفو يشمل الأمراء هناك أيضًا، شعر بالزهو وغاص في أمانيه بأن يجتمع حوله كل الأمراء، ليعتلي العرش ويعيده للمماليك بعد قرون طوال.

يعلم جيدًا أنهم لن يلتفوا حوله ويؤيدوه إلا إذا حقق نصرًا بينًا على غريمة، ثم عليه أن يغريهم بالمال والمناصب، سيعدهم الآن بذلك، ويبرّ بوعده عندما يصبح الوالي، لكن الآن وحالاً، يجب أن يجعلهم على الحياد، لا منضمين له ولا مائلين للآخر.

عاد لخيمته وطلب كاتبه، أملاه رسائل طويلة، منّى فيها شيوخ الأزهر وكبار التجار ومشاهير الناس بالخير الوفير، بعد أن زفّ إليهم خبر رضا الباب العالي عليهم، لم ينسَ أيضًا مكاتبة شيوخ قبائل العربان؛ فعدوه اللدود يستخدمهم كثيرًا، كانوا يدينون له بالولاء، إلا أن الثعلب الماكر عرف كيف يستميلهم بالمال ومعسول الكلام.

للمال بريقٌ ساحرٌ يمهد الطرق الوعرة، ويجعل العدو صديقًا، ويقلب المناوأة لحليف، والباشا أدرك ذلك جيدًا منذ زمن بعيدٍ.. عمله بالتجارة علّمه كيف يشتري الذمم، وله في ذلك باع طويل، جلس في بيته وحوله مشايخ العربان، يكرم ضيافتهم، ويرحب بهم، ويسمع ما كتبه الألفي لهم، الذي طلب منهم أن لا يساعدوه في تنقلاته، تبسم وهو يسمع كلامه، حكّ فخده بيده وهو ينعته بالكاذب المجنون، أهداهم من ثمين ما عنده، خرجوا يسبحون بحمده ويشعرون في كرمه، ولمَ لا يفيض عليهم بكرمه والمال يجبيه له الملتزمون من دماء الفقراء والمعدمين مقدمًا عن السنة القادمة؟! وهل كانوا قد رأوا خير هذه السنة حتى يحصل على القادم من الأيام؟!

*****

(22)

ذكريات

داعب نسيم يونيو أعلام السلطنة العثمانية المعلقة فوق صواري سفنها الحربية الراسيّة مقابل شواطئ الإسكندرية، وقف قبودان باشا ينظر نحو أبراج الثغر، ذهب بفكره بعيدًا، عندما كانت تلك المدينة قِبْلَةَ العالم وحاضرته، حاكوا حولها الأساطير والحقائق وبها تغنوا

«إسكندرية ماريا وترابها زعفران».. ليست المرة الأولى له في الإسكندرية، فقد زارها من قبل، عندما كان ضابطًا صغيرًا في البحرية العثمانية في صحبة أحد الولاة، سار في شوارعها الضيقة، تعجب كيف لهذه الخرابة أن تكون ماريا؟! لكنه أدرك أن جمال المكان وسحره في أشياء لا يستطيع لمسها، ويصعب عليه وصفها، ربما بواقي البنايات الرومانية، أو تلك الفتاة التي أعجبته، عندما كان في السوق بشعرها الأسود القاتم،

وعينيها العسليتين، وخصرها النحيل، وأردافها الممتلئة، وقد تكون تجمعات الصيادين وأهازيجهم، التي يدعون فيها الله أن يرزقهم من حلاله، هو نفسه لا يعرف ما سبب تعلقه بهذا المكان، قطع صوت موسى باشا حبل ذكريات القبودان قائلاً:

- متى سنتوجه إلى القاهرة؟

نظر قبودان باشا نحو من يحدثه، بعد أن انقشعت غمامة الذكريات من فوق رأسه، تنهد تنهيدة صغيرة وما زالت ابتسامته تداعب شفتيه:

- عن قريب موسى باشا، اطمئن، فَعرش مصر يشتاق إليك.

هدّأت هذه الكلمات بعض الشيء من روع الرجُل، دفع الكثير من أجل هذه اللحظة، وعليه أن يستمتع بشمس يونيو، ونسيم الصباح، قبل أن ينهمك في مشاق الحكم، واستعادة ما دفعه من رشاوى حتى يُصدر له فرمان تعيينه، لكنه يشعر بأنّ قبودان باشا يضمر شيئًا في نفسه، لا يريد أن يفصح عنه، ملأ صدره بهواء المتوسط المشبع برائحة الملح والرطوبة، زفرَ بقوة وهو ينظر لعلَم سلطنته يرفرف فوق صاري البارجة، متخيلاً أنّ زفيره هو ما يحركه.

نظر قبودان باشا نحو رفيقه الغارق بأوهامه، هذا المسكين يعتقد أنّ خليفة المسلمين حرك كلّ هذه القطع البحرية من

أجل أن يعتلي هذا المغبون عرش مصر، ألا يعلم أنّ السلطان منحه صلاحيات كاملة؟ قد يعين هذا الذي يقف بجواره في الحكم، وربما يولي محمد بك الألفي، ليعتلي سدّة العرش في مصر بناء على رغبة الإنجليز أصدقاء السلطنة، ولو اقتضت المصلحة أن يثبت محمد علي على عرش مصر لن يتأخر في هذا، لكن أي مصلحة يقصدها؟

قد تكون مصلحته الشخصية، وربما مصلحة الباب العالي، الذي تحيط به المكائد من الداخل والخارج، وربما مصلحة أصدقائه الإنجليز، كلّ هذا سيتوقف على ما ستظهره تلك الأيام القريبة، من سيُقدّر مجهوده ويجزل العطاء هو من سيعتلي العرش بالطبع.

لا يهتم كثيرًا بالوقت، حياة البحر علمته أن العواصف قد تطول، لكن لا بدّ أن تنتهي وقتًا ما، لا يهم متى ستنقضي، فكل ما يشغل باله وقتها هو المحافظة على موقعه دون أيّ خسارة، لكن ما إن تتوقف؛ عليه أن يحدد كيف يستفيد مما حدث؟ كل ما يدور حوله، هي معارك مختلفة الأنواع متباينة الطبائع، يديرها بحنكته، ليحقق منها أكثر ما يمكن قنصه.

ثلاثةٌ يتناحرون ويتشاجرون، ويحركهم شبق السلطة، ولكل منهم طبيعته، هذا الذي يقف بجواره، والذي يطمع في استعادة ما دفعه مضاعفًا، محمد بك الألفي الذي رمى

نفسه في أحضان الإنجليز؛ عله يعيد مجد المماليك القديم، الذي زال على يد سلطان عثماني منذ قرون عدةٍ، وابن كفالا، الذي وصل لسدة الحكم على غير العادة، دون أن يغرم قطعة ذهبية واحدة.

ماذا لو كان الأمر بيد قبودان باشا؟ هكذا فكر الباشا، وهو يحرك يده على مقبض سيفه، من سيختار من بين هؤلاء الثلاثة؟ بالطبع وبكل تأكيد لن يقبل هذا الألفي واليًا على أي ولاية عثمانية، خاصةً لو كانت مصر، ولاؤه للإنجليز واضح وضوح شمس الإسكندرية هذه، وطمعُ البريطانيين في سلطنتهم أكثر سطوعًا من شمس هذه الظهيرة، بالطبع لن يقع اختياره على ابن كافالا، تحدى خليفة المسلمين وخادم الحرمين مرتين، الأولى عندما لم ينفذ فرمان ولاية جدة، والثانية وهي الأخطر عندما وافق أن يتولى ولاية المحروسة قبل صدور فرمان سلطاني بذلك، هذا لا يعني أنه سيوافق على تعيين هذا الموسى، هو لا يختلف كثيرًا عن معظم الولاة الذين يديرون الولايات العثمانية، مجرد قادة عسكريين انتصر من انتصر، وانهزم من انهزم منهم في ميادين القتال، لا علم لهم بأصول الإدارة أو فنون السياسة.

نظر نحو العلم المرفوع على صاري بارجته العسكرية في عزةٍ، ثم تذكر مجدًا قديمًا، حينما كانت تتوقف الكنائس

الأوروبية عن قرع أجراسها على طوال شواطئ البحر المتوسط عندما تمرّ أيّ سفينة ترفع مثل هذا العلم، عاودته ذكريات لم يعشها، لكنّه سمعها كثيرًا، تلك أيام لن تعود أبدًا طالما يتولى موسى باشا وأمثاله منصب نائب السلطان بأوامر سلطانية.

****

(23)

الزحف المقدس

لـم يتوقـف صيـاح الألفـي مـن داخـل خيمتـه، تجمـع الجنـود حـول الخيمـة، ولا يجـرؤ أحـدٌ علـى الدخـول، فهـم يعلمـون جيـدًا أن الشـيطان نفسـه لا يسـتطيع أن يشـارك أسـتاذهم هـذه الخيمـة فـي لحظـات غضبـه، طالـت اللحظـات وصـارت دقائـق، والسـباب لـم يتوقـف:

- أغبيـاء، حمقـى، أرسـلت ثلاثيـن حصانًـا، أربعـة آلاف رأس مـن الغنـم، مئـة مـن الجِمـال المحمّلـة بالذخيـرة، والكثيـر مـن الأقمشـة، كل هـذا مجـرد هديـة بسـيطة كدفعـة أولـى لقبـودان باشـا، ألا يعلمـون أن عـرش مصـر يسـتحق أكثـر؟! ألـف وخمسـمائة كيـس مـن الذهـب، تعهـدت أن أدفـع ثلثهـم، وتتكفـل باقـي بيـوت المماليـك بالمتبقـي مـن المـال، لكنهـم معاتيـه لا عقـول لهـم، فقـط يفكـرون بمؤخراتهـم المترهلـة.

عمَّ الصمت المخيم، إلا من بعض الهمهمات الجانبية بين جنود الألفي، وقف أحمد ليس ببعيد عنهم منصتًا لا يفهم معظم ما يسمع، أرسل البك هدايا لقبودان باشا، وتعهد بدفع أكياس ذهبية سيشاركه فيها الأمراء المصريون، رفضوا ذلك وطلبوا أن يدفع هو المبلغ كله وحده، عاد الصخب مرة أخرى من داخل الخيمة المربعة، ليقول:

- يحسدونني لأنّي أراسل السلاطين والوزراء! ويلومونني لأني أسعى إلى استعادة عرش المحروسة، ملاعين أفاقين، سينقرضون كما تنقرض الحيوانات الغبية الغير قادرة على فهم المستجدات، وهؤلاء الشيوخ أولاد الحرام الآن يتبرأون مني، لا يردون على رُسلي، صدق فيهم قول البرديسي: ما هم إلا عرائس يحركها من يعتلي العرش، ذات يوم سأحشو رؤوسهم بالتبن وأعلقهم على أبواب القاهرة.

كسا الغضب وجوه أمراء وجنود البك، لا يستطيعون أن يروا أستاذهم في هذه الحالة ويقفون مكتوفي الأيدي، لو طلب منهم نقل المقطم لفعلوا، ليخرج لنا ويأمرنا أن نحول القاهرة إلى مجرد ركام وسنفعل، لو أمر أن نأتي له برأس الشيوخ الآن لتسابقنا في جزها، ويكفي أن يشير ونحن نسرع في الانصياع، لكن الصوت من الخيمة عاد للارتفاع:

- من سيفي بالتزاماته هو من سيعتلي العرش، الألباني يدرك ذلك جيدًا، لم يغب ذلك عن ذهني أيضًا، من سيسبق ستكون الفرصة له، وأنا سابق بخطوةٍ بل خطواتٍ، فرمان بالعفو عنا، وفرمان سلطاني بنقل الثعلب إلى سلانيك، نعم هناك فرمان آخر بتعيين نائب للسلطان غيري، لكنَّ ألفًا وخمسمائة كيسٍ من

الذهب قادرة أن تجعل هذا الفرمان لا قيمة له، مبلغ ليس بكبير يسهل جمعه إذا ما تعاون معي المناكيد، أيعتقدون أنني لا أستطيع أن أواجه هذا الأمر وحدي؟

انزاح باب الخيمة، وخرج الأستاذ لجنوده، أحمر العينين، منتفخ الأوداج، شعره مهوش، بكامل ملابسه العسكرية، في يمينه سيفه وفي يساره خوذته، نظر فوجد جنوده كأنهم عفاريت من الجن خرجوا من قماقمهم، تملأهم الحماسة وينتظرون منه الأمر ليلبُوا النداء، وقف وسطهم وأصابته روح الحماسة، التي استشرت وسط أتباعه، صاح فيهم مُحَمِسًا:

- نحن قاب قوسين من العرش، ستصبحون سناجق وكشافين، سنحكم قبضتنا على البلاد من شمالها إلى جنوبها، ستمتلئ خزائنكم بالذهب والفضة، وستُعمّر قصوركم بالحريم من كل جنسٍ ولونٍ، سنستعيد مجدنا الأول، لن نترك بلادنا من أجل هذا الألباني، سيعود الشيوخ لكنفنا، ما إن أدخل القلعة؛ سيسارعون ليعلنوا البيعة ويدعون لي على المنابر، أؤكد لكم هذا، لكن هذا يحتاج لكفاحٍ شديدٍ، نبحث عن نصر قريب يجعل الكل يعرف بأسنا.. هل أنتم مستعدون؟

اشتعل المعسكر بالحماس، الكل يعلن جاهزيته بطريقته، طلقات نارية تشق السماء، سيوف مشهرة تلمع في سماء الظهيرة، حناجر ألهبها الهتاف، وبسمة ثقة علت وجه الأستاذ وهو يضع خوذته على رأسه، مشيرًا ببداية الزحف المقدس نحو عرش المحروسة.

*****

(24)

النجيلة

في صفوف منتظمة تسبقها الطبول، تحرك الألفي بجيشه دون أن يعلمهم إلى أين، أرسل يستدعي باقي الجيش، أدرك السناجق أنهم في طريقهم نحو دمنهور مرة أخرى، هذا الرجل العنيد لن يثنيه أحد عن رغبته في اقتحامها، وجعلها مركز لسلطته، نقطة بداية لينطلق منها نحو القاهرة بعد أن تحتل تجريدة الإنجليز الإسكندرية، سيعود مرة أخرى لأمّ الدنيا، ومنها سيفرض سيطرته على الوجه البحري كله في غضون شهرٍ أو أقل.

اجتمع جيش الألفي كاملاً، أرسل عيونه ليستكشفوا الطريق، لم يبتعدوا كثيرًا، وعادوا مسرعين وهم أقرب للفزع، في خيمته الخاصة وقفوا أمامه يصفون له جنود الباشا، الذين تجمعوا في النجيلة، خليط من العساكر الذين كانوا في الرحمانية ومرقص وجنود الدلاة، ليسوا ببعيدين عنهم بالرغم من أنّ كلمة الدلاة كافية لإثارة الرعب في قلب أي جيش، لكن حماس جيش الألفي كافٍ لهزيمتهم، اصطفوا للانطلاق.

وقف قائدهم أمامهم في زهوٍ يتفقدهم، مرّ بحصانه بين الصفوف، اطمأنّ على جاهزية رجاله، طلبوا منه الموافقة على الانطلاق، هز رأسه نافيًا وابتسامته تنير وجهه، في الصباح اطلع على الهيئة الفلكية للشمس فطالع اليوم لا يبشر بالخير فاليوم ليس يوم سعده؛ ففي المساء سيجتمع النُّوران وفي اللّيل سيطالع هيئة الاختيارات، ستخبره بيوت الكواكب بالوقت المناسب لشن هجومه، ربما في الغد أو بعد الغد يبدأ معركته.

طلب استقدام حريمه وهو في انتظار وصولهن، هكذا طلب من كبار جنوده أن يستدعوا حريمهم، أرسل في طلبهم ليؤكد لجنوده أنه واثق من النصر، قبل أفول الشمس بقليل، تقاطرت وفود الحريم في حراسات خاصة، نصبت خيمة كبيرة للمطبخ خلف خيام الجيش وخلفها خيام الحريم، كان يومًا من العمل المضني لأحمد وزملائه من الطباخين، فإطعام جيشٍ كبيرٍ كهذا ليس بالعمل اليسير، حتى غُكرش كان يعمل بجِدٍّ على غير العادة، ينقل صواني الطعام من المطبخ لخيام الحريم بخفة وسرعة، تتناقض تمامًا مع جسمه السمين، وبطنه الكبير المدور المتدلي أمامه، وبنفس السرعة يعد أسمطة للجنود، يبدو أنّ حرارة حماسهم أصابت الجميع.

لم يعد يهتم غُكرش بمراقبة أحمد كعادته السابقة، في البداية اعتقد القاتل السري أنه يراقبه ليتعلم سرّ الصنعة منه، أو ربما هو أحد عيون الألفي في المطبخ، وينقل له الأخبار والأفعال، وما يدور في هذا المكان المهم، ماذا لو عثر غُكرش على السّم؟ بالتأكيد سيخبر سيده بذلك،

ورغم طول مراقبته له لم يتعلم شيئًا ولا حتى كيفية تقشير البصل، ولم يعطِ أيّ اهتمام ولو بسؤالٍ عابرٍ عن الإضافات، التي يضعها أحمد أثناء عمله، لكنه يشكّل دائمًا مصدر قلق له، لا يعرف لذلك سببًا محددًا، لكنّ طريقة مراقبته تزعجه وتثير أعصابه.

أرخى اللّيل ستار الظلمة، وخرج الألفي ومعه بعض المعدات، حملها خدامه ونصبوها له بعيدًا عن نيران المعسكر، نظر نحو السماء بعد أن رسم في ورقه مربعين داخل بعضهما، قسّم المربع الخارجي الأكبر إلى تسع مربعات متساوية، خطّ رموزًا فلكية، وعاود النظر للسماء، ودوّن ملاحظاته داخل مربعاته الغريبة، وصّل خطوطًا مستقيمة بين الرموز ثم تأملها بعد أن انتهى، تبسم وعاد للمعسكر يسبقه الأمل.

اجتمع بقواد جيشه، وألقى أوامرًا سريعة، وكلماتٍ مقتضبةً، وفي دقائق انفض الاجتماع، توجه لخيمة حريمه، تناول عشاءه الدسم، وتمتع بعروض اشتاق إليها من الغناء والرقص، خلد للنوم بين أحضان نسائه، وحلم الانتصار في معركة الغد يداهم عقله، الذي انتشى بغنج زوجاته وحريمه.

مع بزوغ شمس الصباح، امتد جيش الألفي خلفه ليسدّ عين الشمس، تفقد جنوده، وانتظامهم وهو على صهوة جواده، عاد إلى مقدمة جيشه ونظر خلفه في فخرٍ، ظهرٌ مستقيمٌ، وصدرٌ منفوخٌ، واستل سيفه من غمده وأخذ يخطب في جنوده، قائلاً:

- أرسل لنا جرذ تركيا جنوده يمهّد طريقنا للقلعة، سنقضي عليهم ونبيدهم جميعًا، أثق في قدرتكم كما أثق في ولائكم، بعد ذلك سنحاصر دمنهور مرة أخرى، هذه المرة لن نتزحزح من حولها إلا وهيَ بين يديّ ثمرة ناضجة شهية، ما هي إلا أيام وأحكم قبضتي على مصر، أعدكم بأن تعود إلى كنف أمرائها، هيا إلى الأمام.

تعالت دقات الطبول وتحركت صفوف الفرسان على مهلٍ في ثقة مفرطةٍ، ارتفع الغبار تحت سنابك الخيل، راقب أحمد من فوق شجرة مُغادَرة الجيش داعيًا الله القدير أن يُباد الجيشان، ويعود إلى حارته ليزف إلى ابنة خالته في أقرب فرصة، في مقدمة الصفوف هناك حلم آخر يطفو في عقل محمد بك الألفي، سيُخلِّد المصريون سيرته كما فعلوا مع أول مملوك يحكم البلاد، سيحكي الحكائيون حكايته في المقاهي وفي الموالد، سينافس الظاهر بيبرس وأبو زيد الهلالي، وسيف بن ذي يزن، وبعد عمر طويل سيتحول ضريحه بعد أن يموت لمزار للمصريين من كلّ صوبٍ، تقاد من أجله الشموع، وتنذر له النذور، وتقام له الموالد والاحتفالات، وسيكون قدوة لكل من سيعتلي عرش مصر فيما بعد، وستكون معركة اليوم أول حجر حقيقي في قصر مجده التليد، هكذا حدّث نفسه وهكذا تمنى.

اختفى الجيش من أمام أحمد لكنه ظهر أمام جنود أعدائه، اجتمع جيش العدو مكونًا كتلة بشرية كبيرة، على الجانب الأخر انتشر جيش الألفي على شكل قوس كبير، صعد القناصون على الأشجار العالية

ببنادقهم وذخائرهم، وما هي إلا لحظات حتى اندفع جنود الباشا نحو منتصف جيش الألفي، الذي تراجع للخلف قليلاً، تقدمت الأجناب بنفس القدر، أطبق جيش الألفي على عدوه يحصد منهم الأرواح وكأنه عقدَ معاهدة مع ملك الموت، وتبارى القناصون من فوق غصون الأشجار العالية فيما بينهم من سيقتل أكثر، لم يمرّ وقت طويل حتى كان النصر حليف الألفي، أحاطوا بجيش الباشا، تقريبًا إحاطة كاملة، تمازجت أصوات رصاصات القناصة مع صوت نوبات الضحك الهستيري على هيئة الدلاتية وهم يجرون ويرمون بأنفسهم في النيل طلبًا للنجاة، طراطيرهم تكاد تغطي صفحة النهر، وهكذا انتهت المعركة أسرع مما توقع لها الألفي.

انقسم جنود البك إلى قسمين اثنين، الأول: يجمع الغنائم من خيولٍ وسلاحٍ وخيامٍ وجبخاناتٍ، أما القسم الثاني: يجمع الأسرى ويصفّهم في صف واحدٍ، دارت بينهم المنافسة في التفنن في قتلهم بالطرق الأكثر إيلامًا، منهم من اقترح التوسيط، وآخرون تحمسوا للفسخ، البعض اقترح الخازوق، رفض الأستاذ كل هذا، ليس لرحمة أو شفقة ولكن لضيق الوقت؛ أمر بإطلاق النيران عليهم.

فرغ الميدان من أي جنود أحياء للباشا، وامتلأ بقتلاهم، ودون أوامر من قائدهم قُطِعت رؤوس القتلى والأسرى في سلال كبيرة لتشق طريقها إلى قبودان باشا ليشهد على قوة وغلبة الألفي.

*****

(25)

الأوباش

تطاير خبر الهزيمة في أركان البلاد، هكذا تصل الأخبار السيئة سريعًا على الدوام، وما هي إلا بضعة أيام، وتقاطرت بقايا جيش الباشا على القاهرة، ملابسهم العسكرية مجرد أسمال، أسلحة مفقودة، حفاة، شعر أشعث، عيون زائغة، وكرامة مهدورة، وهل هناك وصف مهين لهم أكثر من أنهم فلول جيش منهزم؟!

اكتظت بولاق بأهل القاهرة، والتفوا حول فلول العساكر، نظرات الرثاء ملح يكوي جروحهم، مصمصة الشفاة تثير غضب المهزومين، تنفلت أعصابهم المعطوبة، يهددون ببواقي أسلحة بالية، وأجسام طحنها الجوع والتعب، ونفوس أرهقها ذل الشتات، فباتوا قططًا برية جريحة، تطارد الأهالي دون هدف، تبدلت شفقتهم عليهم لسخرية

لاذعة، تقلقهم ضحكاتهم ولمزاتهم، ألا يكفي ما ينتظرونه من الباشا حتى يسخر منهم هؤلاء الرعاع؟

- «عودوا إلى برّ إمبابة.»

هكذا كانت أوامر الباشا، ونترك هؤلاء الملاعين دون تربية! لن يكون هذا أبدًا، انصاعوا لأوامره، لكن النفوس تضمر الشر، قسّموا أنفسهم إلى ثلاث مجموعات، مجموعة ذهبت إلى قناطر السبع، والثانية اتجهت نحو سويقة اللآلئ، والأخيرة استقرت في الناصرية.

سند علي ابن السبع سنواتٍ رأسه إلى الحائط بعد أن أحاطها بذراعيه، وقف خلفه خمسة من جيرانه في نفس عمره ليلعبوا الغميضة، وتأكدوا أنه لا يرى، وعينيه مغلقتان، انسحبوا من خلفه في خفةٍ، وابتساماتهم تبحث عن مكان لتظهر منه خلف سحب الذباب، التي تغطي وجوههم، أشاروا لبعضهم عن أماكن الاختباء الغير معهودة، قارب علي أن يصل لرقم عشرة، لكن لم يمهله القدر أن يتمتع بأن يمسك أحدًا من رفاقه، رفعته يد قوية من جلبابه القصير، الذي يصل بالكاد لركبتيه، ثم قذفته في وسط الشارع، طار في الهواء وارتطم بالأرض الصلبة، شعر الصغير ولأول مرة بخشونة حياته القصيرة، عندما تحجر الهواء في رئتيه، حاول أن يتنفس، ولكنه لم يستطع، ركلة أخرى كانت كافية

بارتطامه من جديدٍ بالحائط المقابل، حيث كان يلعب من ثوانٍ، حشرجة قصيرة وبعض قطرات الدم ثم انتهى الأمر.

ازدحمت الشوارع والدروب والعطف بالجنود، هجوم مباغت بسيط، يعادل مقدار بساطة أهل المكان، دقائق قليلة جردت أهل الشارع من بيوتهم، حوّلوها إلى أوكار، أكلوا خزينهم، خربوا أثاث بيوتهم، حرقوا أبسطتهم وأثاثهم بنيران نارجيلتهم، بيوت لم يدخلها الخمر في يومٍ، وأصبحت مرتعًا للفساد وبؤرًا للرذيلة، عادت خمارات خاصة بجنود فقدوا شرفهم منذ أيام في النجيلة.

اعتقد الأهالي أنّ هذا لن يستمر، طال تشردهم في الشوارع، حتى اجتمعوا ذات يوم محاولين إيجاد مخرج لأزمتهم، وقف أبو علي شهيد الغميضة يطالب بالثأر، مقترحًا هجومًا مفاجئًا على الذين احتلوا بيوتهم، وأن يذبحوا من يقع تحت أيديهم، وأن لا يكفوا عن ملاحقة من يفرّ منهم، فصوت صغيره ما زال يصرخ في وسط الشارع طوال الوقت ويؤرق منامه.

لم يجد غضب الأب المكلوم ردّ فعلٍ يناسب حزنه، ترك المسجد ورحل يلعق جراحه مسربلاً باليأس، ما أصعب أن يكفنك الخذلان، ظهر مكسورًا، بأكتافٍ متهدلةٍ ومفاصلَ متجمدةٍ، وعقل شارد متيبس، الحياة الآن لم تعد

تعنـي شيئًا، والمـوت أمنيـة ليسـت صعبـة المنـال، مجـرد سـكين حـادٍ، والظـلام قـادر علـى سـتره، رأى أنّ ركـن الجامـع الشـرقي المحصـور بيـن حائـط القبلـة، والمئذنـة مناسـب تمامًـا للاختفـاء، طعنـات خارقـة كافيـة بقتـل مـن سـيمرّ مـن هـؤلاء القتلـة. وفـي الصبـاح وجـدوا جثـة الأب ممزقـة بجـوار المسـجد، ذهـب يؤنـس وحـدة ابنـه فـي البـرزخ، سـيقدم لـه اعتـذارًا ممهـورًا بطعنـات تمـلأ جسـدًا، ورأسٍ مقطـوعٍ معلـقٍ علـى مدخـل الشـارع، ألحـق العـار بأهـل الحـي دون قصـد منـه، وهـم مـن فقـدوا كرامتهـم دون وعـي منهـم، حيـن فضلـوا التفـاوض مـع الخنازيـر علـى أن يثـوروا عليهـم.

توجـه وفـدٌ مـن كبـار أهـل الحـي ليتفـاوض مـع الأوبـاش محتلـي المنـازل، لقـاءات مكـررة فـي كل بيـت، مقابـلات سـمجة تبـدأ معظمهـا برفـض دخـول الوفـد إلـى المنـزل، وتنتهـي دائمًـا بصـراخ بـارد يخـرج مـن حلـوق تضـخ برائحـة الخمـر :

« أنتـم نائمـون فـي بيوتكـم كالنسـاء، ونحـن سـاهرون نحميكـم، لولانـا مـا عشـتم فـي أمـانٍ، ألا نسـتحق بعضًـا مـن الراحـة؟ ألا يجـب أن تضحـوا بعـض الشـيء؟ إلى هذه الدرجة لا تقدّرون تضحياتنـا؟ لـن نرحـل مـن هنـا سـريعًا وعليكـم التأقلـم مـع هـذا الوضـع، لا داعـي مـرة أخـرى لمحاولاتكـم السـاذجة

للتحـرش بنـا، لقـد رأيتـم نتيجـة تهـور ذلـك المجنـون، لـن نحـذر ولـن نهـدد، سـننفذ دون أيّ سـابق إنـذار، والآن اتركونـا فنحـن نحتـاج للراحـة.»

هكـذا دائمًـا تنتهـي المقابـلات بيـن الوفـد وبيـن غاصبـي البيـوت، شـتائم لا تنتهـي حتـى بعـد مغادرتهـم، وفـي عـدة مـرات قامـوا بكسـر أنـف أحـد رجـال الوفـد، بعـد لكمـة قويـة مـن يـد جنـدي ثمـل، لـم يُجـدِ التفـاوض معهـم، بـل منحهـم فرصـة أكبـر لتثبيـت إقامتهـم فـي البيـوت، وحجـة لمضايقتهـم أكثـر، وفرصـة للتحـرش بنسـائهم وبناتهـم وجواريهـم، تسـاءلوا:

« هـل كان والـد علـي علـى حـقٌّ؟ يبـدو أنهـم فهمـوا ذلـك متأخـرًا، إذًا الثـورة هـي الحـل.»

الفتـوات هـم أهـل الخبـرة والدرايـة بهـذا الأمـر، سـيقودون المعركـة ضـد غـزاة البيـوت، جمعـوا رجالهـم والمتطوعيـن مـن شـباب ورجـال الحـي، قسّـموا أنفسـهم لفـرق صغيـرة، هجـوم مفاجـئ علـى كل البيـوت فـي وقـتٍ واحـدٍ كافٍ للفتـك بمـن فـي الداخـل، وسـيكون الثلـث الثانـي مـن اللّيـل أفضـل توقيـت للبـدء، التجمـع دون جلبـة والمباغتـة والمفاجـأة همـا عنصـرا النصـر.

كل شـيء مجهـز، سـكاكين تـم شـحذها عنـد السـنّانين، عصـى غليظـة دقّ فيهـا النجـارون مسـامير حـادة حتـى فـروع الأشجار القويـة والمرنـة قطعوهـا ودببـوا أطرافهـا، الـكل مسـلح وفـي انتظـار سـتر اللّيـل وأوامـر الفتـوات.

فـي عصـر ذاك اليـوم ودون أيّ مقدمـات غـادر المحتلـون البيـوت، حملـوا مـا تبقـى مـن أسـلحتهم بعـد معركتهـم الأخيـرة ورحلـوا، ظـنّ الأهالـي بـأن أحـدًا وشـى بهـم، انقسـموا إلـى فريقيـن الأول يؤكـد أن أخبـار اسـتعدادهم لهجـوم اللّيلـة وصلـت لمسـامع الهاربيـن، فقـرروا الفـرار خوفًـا علـى حياتهـم، الثانـي لـم يمانـع مـن صحـة فرضيـة وصـول الخبـر، لكـن رحيلهـم مجـرد خدعـة وسـيعاودون الهجـوم مـرة أخـرى؛ ولهـذا لـن يتخلـوا عـن التيقـظ والاسـتعداد.

عـادت النسـاء للبيـوت، كل شـيء خُـرب، بذلـن الكثيـر مـن الجهـد ليزلـن كل هـذه الأوسـاخ، التـي تركهـا الملاعيـن، انشـغل الرجـال فـي مناقشـة الأمـر، جلسـوا فـي حلقـات يتدارسـون كيفيـة الدفـاع عـن مناطقهـم إذا مـا عـاد الأوغـاد مـرة أخـرى.

أوامـر مشـددة مـن الباشـا هـي السـر وراء نـزوح الجنـود ومغادرتهـم، يبـدو أن الأمـر جلـل فَهزيمتهـم السـابقة لا تعنـي أنهـم قـد انتهـوا، مـا هـي إلا مجـرد خسـارة فـي معركـة واحـدة والمعـارك كثيـرة، سـيطفئون نـار حقدهـم بدمـاء

الألفـي وجنـوده، سـيدفنونهم أحيـاء، وتتزيـن بوابـات القاهـرة برؤوسـهم عمّـا قريـب.

*****

(26)

المحرقة

لـم يفاجـأ الألفـي بالخبـر، كل مـا كان عليـه هـو أن يعيـد حساباته فقـط، لا أمـل فـي هـؤلاء الأمـراء، يخاطبـون قبـودان باشـا ويرسـلون لـه الهدايـا، خيـول وعبيـد وطواشـية وسـكر، يرفضـون دعمـه ليقودهـم ويحكـم باسـمهم، يزاحمونـه فـي رغبتـه، ويحقـدون عليـه، ويعترضـون طريقـه، ولا يعـون أن كل ذلـك لـن يصـبّ فـي مصلحتهـم دون دعـم الإنجليز لـن يصل للحكم حتـى لـو وقـف كل المماليك خلفه، لا داعـي لاستمرار الحصار، الذي ضربه حول دمنهور إذًا، يعـود أدراجه ويعـاود الهجـوم عندمـا تصـل تجريـدة حلفائـه.

وقـف أحمـد يراقـب عناصـر الجيـش وهـم يصطفـون فـي صفـوف منتظمـةٍ، مقابـض سيوفهم البراقـة تلمـع تحـت أشـعة شـمس الصبـاح، النشـاط بـادٍ علـى محياهـم، والثقـة تعلـو رؤوسـهم، وكـزه عُكـرش برفـق لينبتـه لوجـوده، التفت نحـوه ، بـادره البديـن بإلقاء التحيـة، لـم يعطه

فرصة للرد، وسأله وهو يشير نحو أمير القوات:

- ألا ترى أن وجهه شاحب ويعاني كثيرًا؟

- أراهم كلهم في كامل صحتهم والعافية والنشاط.

- انظر للألفي بك ودقق النظر، يبدو باهت اللون، شاحب الوجه، وعلى جسمه يظهر الوهن.

- ربما لم ينم جيدًا فقط.

وصلت إلى مسامعهم دقات الطبول رتيبة بطيئة، انتبه الجنود ونفخوا صدورهم، واعتدلوا في جلساتهم فوق ظهور خيولهم، تعالت الدقات وأسرعت، تحرك الجيش في نظام جادٍ، اقشعر بدن أحمد، وتبسم غُكرش في خبث وهو يتأمل قائد الجيش ينكز حصانه بمهمازه الذهبي ليبدأوا مسيرة العودة نحو الجنوب.

كانت الكآبة هي رفيق البك طوال الطريق، يمتلك جيشًا أقوى من هذا الألباني، الذي ثبته قبودان باشا على حكم المحروسة بمساعدة بعض الأراذل، الذين يسمون أنفسهم مشايخ الأزهر، يلعبون على كل الحبال، ويدينون بالولاء لمن يعتلي العرش، وينعمون بالخير الوفير، ويجتمعون مع الحاكم ليدافعوا عن حقوق البسطاء، ينتهي اجتماعهم بحصولهم على مميزات أكثر أو هبات أو منح، وبعض المسكنات عن الصبر، الذي ليس له ثواب إلا الجنة، يلقونها في خطبهم من فوق منابرهم، فربما لو ناصروه لتغيّر رأيه.

الآن يساعدون هذا التركي، يجمعون له السَلَف من أغنياء القوم، وغدًا سيجبونها من الفقراء، سيتخلص منهم جميعًا يومًا ما، وسيحاصر القاهرة ويقتحمها، سيوصي رجاله أن يقتلوا هؤلاء الأفاقين أينما وجدوهم، سينشأ جيلٌ جديدٌ يدين له هو وحده بالولاء، عليه التحلي بالصبر والمثابرة وتحمل هذا الألم، الذي يقطع في أحشائه.

لم يكن القائد وحده من يعاني من الاكتئاب، فطباخه الماهر له منه نصيب، فهو بعيد عن عائلته منذ فترة طويلة، لا يعرفون عنه ولا يعرف عنهم شيئًا، اختفى عنهم واختفوا عنه، حتى أبوه لا يسمع عنه، آخر لقاء جمعهم كان وداعه لهم قبل رحلتهم المشؤومة إلى السيد البدوي، ذهب كعادته إلى عمله في مصنع من مصانع السكر، ألم يكتشف غيابهم حتى الآن؟ هل غادر مقبل الحارة، وأصبح اختفاؤهم سرًا لن ينكشف؟

نظر عُكرش من طرفٍ خفيٍّ نحو أحمد، كان نائمًا خلف وعاء طبخ نحاسي كبير، لاحظ القلق الذي يعتري زميله، نظر نحو الأفق حيث بداية الجيش، وجده بعيدًا ولا يظهر منه إلا أطراف صواري الأعلام المدببة تلمع في شمس الظهيرة الحارة، اقترب من رفيقه على عربة الكارو، التي تحمل بعض أدوات الطهي، وسأله بصوتٍ هامسٍ:

- هل تعتقد أن الباشا يستطيع أن يهزم هذا الجيش الجرار؟

لم يُجِبْ أحمد سؤال هذا السمين، الذي يشاركه في سفره، كما يشاركه في الخيمة، التي ينام فيها؛ ربما خاف أن يجيب، أو أنه لم ينتبه لكلامه، أعاد عُكرش السؤال مرة أخرى بعد أن وضع يده على كتف الغارق في الحزن، التفت نحوه مذعورًا، ضحك مساعده، وأعاد السؤال للمرة الثالثة، نظر أحمد نحو الأفق محاولاً أن يرى مقدمة الجيش، أجاب بعد أن فشل في رؤية أوله:

- لم أرَ جيشًا في مثل هذا العدد، والتنظيم، والتسليح!

- لكن الباشا سينتصر.

- وهل انتصر الباشا من قبل؟ لا لم يحدث في كل المعارك التي عاينْتُها من قبل، حتى العثمانيون لم ينتصروا عليه مطلقًا، وتجريدة الحمير خير مثال على هذا، إنه الشيطان من يلهمه ويكيد معه.

- الشيطان هو الباشا، وهو من سينتصر هذه المرة، صدقني.

- هل هذا ما تتمناه؟

- هذا ما أتيت أنت من أجله.

بهت من إجابة هذا السمين، الذي أخذ يهتزّ من الضحك، امتقع وجهه، حتمًا هذه هي نهايته. لم يفكر كيف كشفه هذا الذي تطلّ من عينيه كلّ علامات الغباء، ما شغل تفكيره هي الطريقة التي سيبتكرونها لقتله، هل الخازوق؟ أم التنصيص؟ وربما يجدون طُرقًا

جديدة حتى ينهون بها على حياته، اقترب عُكرش منه أكثر حتى التصق به، أمسك أذنه وهمس:

- لا تقلق،عزّ الدين ينتظرنا، لقد أتممنا العملية بنجاحٍ وسنهرب قبل أن يلتقوا بجيش الباشا.

لم يفهم في البداية، أو لم يتصور أو يعي أنه كان طوال الوقت مراقبًا، لم يدْر بخلده أن هذا المعتوه عين من عيون الباشا عليه! كيف خدعه وخدعهم طوال هذه المدة؟ كيف تمكن من إدعاء الغباء بهذه الطريقة المتقنة؟ وكيف تصله الأخبار وكيف يوصلها؟ هل هو من سرق زجاجة السم، واستخدمها بدلاً منه؟ هل يعلم أنه من قتل شيروان؟ هل له علاقة بمقبل؟ هل يعلم أين أمه وأخته وخالته وحبيبته؟ عشرات من الأسئلة طافت في رأسه، انسحب عُكرش إلى مكانه خلف الوعاء الكبير، وراح في نوم عميقٍ، أو هكذا تظاهر، على حين جلس أحمد مهمومًا يبحث عن إجابات لأسئلته الكثيرة، أضناه البحث ولا إجابات، بل إنّ مزيدًا من التساؤلات أخذت تكتظ في رأسه.

تأخرت العربة المقلة لأحمد وعُكرش، حتى أصبحت تدريجيًا في آخر الصف، نظر العربجي، الذي يقودها، وأشار لصاحب الكرش برأسه، سحب أحمد من يديه وقفزا، جدّ العربجي في التقدم مرة أخرى، اختبأ الزميلان لبعض الوقت تحت ظِلّ شجرة، أخرج السمين من بين طيات ملابسه بعض الخبز، والغموس وأخذ في

ازدراده، عرض على مرافقه أن يشاركه؛ رفض لأنه لا يشعر بالجوع، كل ما يشعر به الآن هو مزيج من القلق والتوتر، والخوف والتّوجس.

واصل الجيش المنظم تقدمه، تعالت دقات الطبول على مشارف الجيزة، لتبثّ الرعب في جنود الباشا، الذين اختبأوا خائفين مكتفين بمراقبة هذا الجيش الأسطوري يمر من أمامهم، حتى الباشا فعل كما فعل جنوده، راقبه يمرّ وتتبعه بنظارته المعظمة، حتى اختفى عن ناظريه، تهلل وجهه، واحتفل بهروب الألفي وجنوده، هكذا أشاع وأراد الناس أن تفهم، وهكذا صدق أحمد، عندما وصل مع عُكرش مكان الاحتفال، لكنّ الوحيد الذي لم يقتنع بذلك هو البدين، الذي حاول أن يفهّم زميله أنهم لم يتناوشوا، ولا يوجد قتيل واحد، ولا جريح، ومع ذلك أراد أحمد التصديق لتنتهي معاناته، ويلتئم شمل عائلته من جديد.

اعتصر الألم بطن الألفي، فلم يعد يحتمل، سأل عن اسم القرية، التي كادوا أن يدخلوها، فأخبروه أنّها المحرقة، سويعاتٍ قليلة ويكونوا في دهشور، لم يتفاءل من اسمها، لكن الوجع شديد، ولا يستطيع أن يتحرك خطوة واحدة، نصبوا له خيمة صغيرة ليستريح فيها هذه اللّيلة، السم يجري في عروقه، يحرقها ويقطّع في أمعائه بنصاله الحادة دون رحمة، العرَق يتصبب منه باردًا مؤلمًا يحمل رائحة الموت، ظلّ المنية يرمي بأطرافه على عينيه، نظر خارج الخيمة من بين رجاله، اللّيل حلّ وأحكم سيطرته على المكان،

الحسرة تشجعه على تقبل الموت بصدر رحبٍ، بصوت متعب أرهقته حوادث الزمن خرجت الكلمات ملوثة بدمائه:

- يا مصر انظري إلى أولادك وهم حولك مشتتين متباعدين مشردين، وقد استوطنكِ أجلاف الأتراك واليهود وأراذل الأرناؤود، وصاروا يقبضون خراجكِ، ويحاربون أولادكِ، ويقاتلون أبطالكِ، ويقاومون فرسانكِ، ويهدمون دوركِ، ويسكنون قصوركِ، ويفسقون بولدانك، وحوركِ، ويطمسون بهجتكِ ونوركِ.

مسح أحد تلاميذه الدم عن فم ولحية أستاذه، شبح الموت أحكم قبضته على الذي لم يقهر، أو يستسلم ذات يوم، استجمع ما تبقى من قواه، أبعد يد تلميذه وعاود الكلام مرة أخرى:

- قُضي الأمر وخَلُصَت مصر لمحمد علي، وجرى حكمه على المماليك المصرية، فما أظن أن تقوم لهم راية بعد اليوم.

أنطفأ النور في عينيه التي أرعبت من قبل العربان والأتراك والفرنسيين، تدفق الدم من فمه وأنفه، توقف الصدر عن الصعود والهبوط، اكتفى القلب من الحياة وامتنع عن النبض، مالت رأسه إلى جانبه، مات الألفي.

*****

(27)

الأخرس

"من أجاد الحيلة لم يعدم الوسيلة» هكذا حدّث محمد علي نفسه، نقْص المال مشكلة تؤرقه، وعليه أن يُسرف في بعض نفقاته، العربان لا يستقرون، والباب العالي لا يشبع، ومرتزقة الأرناؤود لا يكفون عن المطالبة بالرواتب والمكافآت، واستمالة المماليك مكلفة للغاية، تنقص من دخله، لو ثار العربان عليه، وغضب الباب العالي منه، وانقلب الجيش ضده، واتحد بواقي المماليك، وتآكل ظهيره الشعبي المرهق بالضرائب؛ فزوال ملكه هو النهاية الحتمية، وعليه أن يتجنب كل هذا، ضجّ الملتزمون من طلباته، ولولا توسط الشيخ عمر النقيب وزملائه، لما وُفِّق في تحصيل جبايات العام المقبل بشروط اتُّفِقَ عليها، صحيح أنهم معفون من الضرائب، لكنهم صَدَّقوا أنه في حاجة ماسة لها، فقبلوا ذلك مرغمين، هم من اختاروه وعليهم مساندته حتى النهاية.

حضر مع التجريدة الألبانية هنا على مضض، ترك زوجته وأبناءه في وطنه، دون نقود تُذكر، وتحمّل مشاق السفر، لم يصل لسدّة العرش بسهولة، عمل الكثير والكثير حتى يصل إلى ما هو عليه الآن، تحالف مع «البرديسي» ذات يوم، وجعله أخًا له، وأحكم سيطرته عليه، حاربا «خسرو» الأعرج معًا، انتصرا عليه، وسجناه في القلعة، قاتلا خليفة «خسرو» المرسل من الباب العالي، وبالرغم من أن الأخير نجح في استمالة بعض المماليك إليه بفرمانات من السلطان، لكن محمد علي والبرديسي لن يضحيا بكل معاناتهما من أجل هذا الوالي الجديد، قتلوا «علي باشا بوغول» ولم تبقَ هناك قوة في الإقليم تضاهي قوة الألباني والبرديسي.

يوم أن وصل الفرمان العالي بتوليه ولاية مصر عَلِمَ علم اليقين بأنّ هذا لن يطول، سيسعى البلاط السلطاني لعزله أو نقله، وهذا لا يحتاج إلى ذكاء خارقٍ حتى يصل لهذه النتيجة، تم اختياره من قِبل علماء ومشايخ الإقليم وهي سابقة لا يريدها السلطان أن تتكرر بالتأكيد، ولكي يثّبت أركان حكمه؛ عليه أن يقضي على المماليك، وهذا لن يرضي الإنجليز دون شكٍ، وإذا زاد من ضغطه على الشعب سيقف ضده المشايخ والأعيان، وهذا ما لا يتمناه مطلقًا، كل ما سبق في كفٍ، والمشايخ في كف آخر الآن، قضى على الألفي رجل إنجلترا المدلل دون عناء، عندما نجح مبعوثه في سمّه، وهكذا انتهت آمال حلفائه الإنجليز ولو مؤقتًا، وهو يعرف علاج البلاط العثماني ، الكثير من الأموال والهدايا، وبالتالي يأمن مكرهم، لكن كيف يحصل عليها الآن؟

عليه أن يتفنّن في تحصيل ما يحتاجه من المال، هو يعلم جيدًا أنّ الفلاحين - هم المورّد الأول والأكبر لخزانته - لا يجدون ما يسدّ رمقهم، والتُجَّار يعانون من حالة الكساد ومن الضرائب والجمارك، التي أثقلت كاهلهم ، عليه أن يبتكر الجديد، والحِيَل كثيرة، وهو المبدع في ذلك بشهادة كل من عامله، حتمًا سيجد الطريقة، لكن على البصاصين أن يتفانوا في عملهم، وهو يعلّق عليهم الآمال، فبالتأكيد هم لن يخذلوه.

طلب كبير البصاصين المثول بين يديه، تبسَّم الباشا في خُبث وهو يشير لحارسه بأن يسمح له، انحنى الرجل عندما دلف من الباب، حَكَّ الباشا لحيته وضيَّق عينيه الزرقاوين وهو يردّ سلام البصاص الأكبر، وبادره بالحديث:

- هات ما عندك يا رجُل.

- قبضنا على بعض التجار النصارى يا جناب الباشا.

- ماذا فعلوا لتقبض عليهم؟

- رصدنا قافلة مُحَمَّلة بثياب جنود خارجة من القاهرة.

- لا بد أنها كانت متجهة لأمراء المماليك في الصعيد.

- نعم يا باشا.

- وكيف خرجت وأنا منعتُ هذا من قبل؟

- قبضنا على الحَمَّالين، ومنهم عرفنا من هم أصحاب البضاعة.

- من هم؟ وأين البضاعة؟

- تجار مسيحيون قبضنا عليهم، والبضاعة محجوزة يا أفندينا، بعد أن عددناها وسلمناها لأحد كبار الموظفين، ووقع على إيصال بذلك.

- عظيم، عظيم، لكن لا بد أن هناك من سَهَّل لهؤلاء التجار مهمتهم.

- نعم، هناك من سَهَّل لهم ذلك مقابل براطيل كثيرة.

- من هذا الملعون؟

- إنه الباشا «إبراهيم آغا» يا جناب الوالي.

وقف على قدميه، رجاله يخونونه من أجل حفنة من الدنانير، أخذ نَفَسًا عميقًا ليسيطر على غضبه، الغضب يعمي العقول، ويجعلها تتعطل، وهو في حاجه لأن يستفيد منه الآن، تحسَّسَ سيفه وأمسك مقبضه، لو أمر بقتل هذا الإبراهيم ما لامه أحد، لكن ماذا سيستفيد من هذا؟ عليه أن يكون أكثر حكمة، ترك سيفه يهتزّ بجانبه، ونظر نحو بصّاصه، فَكَّرَ لبرهة قبل أن يأمره:

- اقبضوا عليه، وضعوه مع أعتى المجرمين، لا معاملة خاصة له، امنعوا عنه أيَّة زيارة، جردوه من رتبه قبل أن ترموه في السجن، لا يقابل أحدًا أو يراسل أحدًا، خاصةً هؤلاء التجار الأقباط، هيَّا نفذ على وجه السرعة والدقة.

انحنى كبير البصاصين حتى خرج من الباب، حَكَّ الباشا يديه في طمع، فهكذا سيُحصل النقود، ودون عناء أو أن يضجر أحد، بل سيشكره الجميع على ذلك.

مهما كان المرجل ساخنًا، على الصياد الماهر أن يتحلى بالصبر والهدوء، ما أن تقترب الفريسة من الشرَك كل ما عليه هو الثبات والبقاء صامتًا دون حراك، هكذا نفذ محمد علي خطته ضد إبراهيم أغا، الذي مرت عليه أيام السجن مريرة وكئيبة، خلف حوائط السجن الباردة، وعي معنى المثل الشعبي» أن يرى النجوم في عزّ الظهر»، وحنضل الأخرس كفيل بأن يطبق هذا المثل حرفيًا، غليظ القلب والملامح، ضخم الجثة، صدره مملوءٌ بالعضلات البارزة، ذراعاه لا يصلحان إلا للفتك، كفاه وقدماه كبيرتان، كان عبدًا عند أحد الأتراك، ارتكب جرمًا ما لا يعرفه أحد، فقطع التركي لسانه، هرب قبل أن يتمكن من قطع طرف أخر، قبضوا عليه بعد مطاردات طويلة وعنيفة، أودعوه السجن ليقضي بقية حياته هناك، بعد أن مات سيده وعادت عائلته لبلادهم هربًا من الفرنسيين.

كل شيء فيه كبير وضخم - هكذا وصفه إبراهيم آغا- سخّره العملاق لخدمته منذ أن دخل السجن، طلباته لا تنتهي إلى أن وصل الأمر أن يطلبه ليطأه، حبك الشيطان حبكته وكل شيء مُجهز لأن يهتك عرض الباشا السابق، ولولا تدخل حراس السجن في الوقت المناسب لفعل فعلته.

قيده الحراس وأنقذوا سجين أفندينا من براثن غاصِبه، لو لم يقضِ حنضل وقتًا طويلاً في استعراض فعلته أمام أعوانه في السجن لقضى وطره من فريسته، لكنه القدر منعه من الوصول لهدفه، قرار بالإفراج عن ضحيته جعله يبحث بين السجناء عن البديل.

إفراج مشروط بعد شفاعة من امرأة مقربة لنائب السلطان، ولكل شيء ثمن فدفع مصالحة كبيرة ليعفو عنه، ويخرج من السجن ويعود لمنصبه مرة أخرى، والموافقة أكيدة، ولو طلب ضعف ما يرنو إليه، شبكة الصياد بها أكثر من سمكة، أطلق سراح واحد، وعلى الباقي أن يدفعوا ثمن حريتهم، وهكذا تم الاتفاق مع التجار، سيصادر الباشا بضائعهم، وهذا أمر اعتيادي، وعليهم أن يدفعوا الأموال وإلا بقوا في محبسهم إلى أن يقضي الله أمره، هكذا وببساطة كانت رسالته إليهم، دفعوا المصالحة وتنفسوا هواء الحرية، بعد أن تعلموا درسًا قاسيًا، لكن شهية الحاكم لم تكتفِ بعد، ولم لا وهناك فرصة أن يقتنص بعض الأموال، تهمة

صغيـرة لمـن حُجِـزت عنـده البضاعـة بالاختـلاس كفيلـة بـأن ترميـه تحت يد الأخرس خلف أسوار السجن، والحل أصبح معروفًا، مبلغ مالي ضخم لخزينة الباشا الخاصة وإلا كان مصيره في يد العملاق الشبق.

*****

(28)

الشيــوخ

نجـوم ثمانيـة خشـبية مـن أحجـام مختلفـة، تزيـن واجهـة عاليـة مـن ثلاثـة أدوار، متشابكة معًـا بطُـرق معقـدة، تنـم عـن فنان صبور، عشـرات الألـوف مـن قطـع خشـبية صغيـرة جُمعـت معًـا بدقـة متناهيـة؛ لتكـون مشـربيات أرابيسـك، تُدخـل الضـوء والهـواء العليـل لغـرف الدوريـن الثانـي والثالـث، وتمنـع عيـون المتلصصيـن مـن رؤيـة مـن فـي الداخـل، حديقـة غنّـاء واسـعة متراميـة الأطـراف، عُلّـق علـى أشـجارها مصابيـح زيتيـة، تشـق ظلام الأزبكيـة دون خجـل.

فـي صالـة داخليـة كبيـرة بالـدور الأرضـي، لهـا سـقف خشـبي نُحتـت عليـه بعـض آيـات القـرآن الكريـم، سـتائر خضـراء غطـت نوافـذ الصالـة فـي بهـاء، يصـل صـوت خريـر النافـورة الكبيـرة بالخـارج، متناغمًـا مـع صمـت اللّيـل وجلالـة المـكان وجمالـه، فـي صـدر الصالـة علـى كنبـة عاليـة منجـدة بحواشـي حريريـة، جلـس الشـيخ السـادات بملابسـه

الأزهرية وعمامته الكبيرة، ولحيته الرمادية، كملِك على عرشه، يفكر مليًا في أمر غامض، لا يعرف من حوله ما هو، هل هو شيء خاص به؟ أم يخص الجمع، الذي اجتمع في داره العامرة؟

في يمين القاعة ويسارها صُفَّت أرائك واسعة، مفروشة بسجاد صوفي ناعم، يختلف في حجمه، وألوانه عن التي بسطت على أرضية المكان، تفرق عليهم الشيخ البكري، وكبار تجار القاهرة وأعيانها، على يمين الشيخ السادات، وليس ببعيدٍ عنه، تربع الشيخ الشرقاوي ممسكًا فنجانًا من القرفة الممزوج بالزنجبيل الساخن، يرشف منه رشفات بصوت مسموع، ويمصمص شفتيه بعد كل رشفة، على يسار صاحب البيت أريكة مماثلة للتي يجلس عليها شارب القرفة؛ تُرِكت فارغة في انتظار الشخص الأخير، الذي لم يحضر بعد.

قطع صوت الشيخ البكري الصمت، الذي لم يخلُ إلا من مصمصة الشيخ الشرقاوي لشفتيه:

- تُرى ماذا سيفعل أفندينا بجرجس الجواهرجي؟

رد أحد التجار وهو يلوك قطعة من حلوى الزلابية:

- تهمة اختلاس، سمعت أنه دفع أربعة آلاف وخمسمائة فرانك كمصالحة.

تدخل تاجر آخر، بعد أن وضع بعضًا من النشوق في أنفه، وعطس عطسة قوية، أعاد علبة النشوق الفضية لجيبه، وهو يشهق من العجب:

- يا له من مبلغ ضخم!

- نعم، لم يكتفِ بهذا، بل إنه فرض ضرائب كبيرة على التجار المسيحيين.

- لا يهم، فهم معهم من الثروات ما يكفي لأن يدفعوا أضعاف هذه الضرائب.

لم يتدخل الشيوخ في الحوار الدائر بين التجار، ظلوا ملتزمين الصمت، وشُرب القرفة، ومضْغ الزلابية وبلعها، ولكن هذا لم يمنعهم مطلقًا من الإنصات باهتمام لكل كلمة في الحديث الدائر أمامهم، هب الشيخ السادات واقفًا، صمت الجميع، ووقفوا ونظروا نحو باب الصالة، واندفعوا مرحبين بوصول الشيخ عمر مكرم، بادرهم بالسلام، فردوا عليه بصوت مرتفع، وسارعوا إلى مصافحته، أول من صافحه هو الشيخ السادات، صاحب المكان، ثم الشيخ الشرقاوي، وبعده الشيخ البكري، ثم كبار تجار القاهرة ووجهائها، حاول بعضهم أن يقبّل يديه، لكنه سحبها برفق وتواضعٍ، قاده المضيف لمكانه، وجلس بعد أن سمى الله، والبشر يملأ المكان بوصول نقيب الأشراف.

بإشارة صغيرة من الشيخ السادات، تقدم خادم بصينية نحاسية، حملها بين يديه، عليها كوب زجاجي يتصاعد من فوهته البخار، محملاً برائحة اليانسون الذكية، وقف أمام الشيخ عمر، وهو لا يصدق أنه يراه رؤى العين، تناول الشيخ الكوب، وربت على يد الخادم في رفقٍ، كاد أن يُغمى عليه من الفرحة، حفيد رسول الله لمسه! انسحب خارج القاعة فخورًا بالبركة، التي حلّت عليه في هذه اللّيلة المباركة، وهو يكاد أن يطير من فرط السعادة.

ترحيب حارّ عمّ المكان بنقيب الأشراف، الكل سعيد، أو على الأقل يُظهِر ذلك، انتهى السيد عمر مكرم من كوب اليانسون، واحتفظ به في يديه، رغم حرارة اللقاء، لكن هناك برودة ما شعر بها تسري في جسده، تمسك بالكوب لعلّ حرارته تتغلب على برودة جسمه الغامضة، بادر أحد التجار وسأل آخر القادمين:

- هل أخذ أفندينا إذنكم على الضرائب الجديدة؟

تنحنح السيد عمر ليعطي نفسه وقتًا أطول في التفكير للإجابة على السؤال:

- في الواقع لم يستشر أحدًا فيما فعل، لكن الأمر جِدُّ خطير، يحتاج أفندينا للكثير من النقود هذه الأيام.

سأل التاجر بتهكم واضح في ثنايا كلامه:

- هل هناك مشاريع جديدة يخطط لإنشائها؟

- لا، لكن هناك الكثير من الأعداء يحيطون به، ويتربصون بالبلاد.

كانت إجابة الشريف حاسمة وحادة، وإن كانت مغلفة بابتسامة تكسوها السخرية، أكمل كلامه بعد أن اختفت الحدة والسخرية من حديثه، ليحل محلهما مسحة من الغضب، وإن كانت غير واضحة:

- تتذكرون يا سادة كيف ولماذا ومن اختار محمد علي باشا؟

ابتسم الشيخ السادات قبل أن يُجيب، فهو أكثر الموجودين دراية بطباع السائل، قائلاً:

- كلنا يعلم من قام بهذا يا سيد عمر.

- أريد أن أسمع يا شيخ السادات، قبل أن نتناقش فيما هو آتٍ.

- ما العائد من ذلك يا سيادة النقيب؟

- نتذكّر ونذَكّر، والذكرى تنفع المؤمنين.

انفتحت شهية الموجودين للحديث عن ذكريات أيام كانت صعبة ومؤلمة وعظيمة، حقًا إن المجد يُولد من رحم المعاناة، تحمس الشيخ البكري للكلام :

- لم يكن اختياره مصادفةً، لقد كان عملاً ملحميًا، لم يَسْعَ يومًا للحكم، بل على العكس هو دائم الهروب منه.

تدخّل أحد كبار التجار وهو ينظر نحو نقطة مجهولة:

- وضع البرديسي في المقدمة رغم أنه الأقوى والأجدر، حقًا إنه زاهد في الحكم.

تذكر الشيخ السادات شيئًا مهِمًا عندما ذكر اسم الأمير البرديسي:

- لا تغفلوا دفاعه عنا عندما هاجمنا البرديسي، هل علمتم بمرضه؟

اعتدل السيد عمر مكرم في جلسته:

- يقولون إنه مصاب بالحمّى الصفراء، عافانا وعافاكم الله.

أمّن الشيخ السادات على دعاء السيد عمر وأكمل حديثه:

- آمين، كان موقفًا عظيمًا عندما منع جنوده من العبث بمقدرات المساكين، وحروبه ضد ولاة الأتراك الظالمين، هل تتذكرون ما فعل الدلهيون بالبلاد والعباد؟

تنهد الشيخ الشرقاوي:

- لا تُذكّرنا بهؤلاء المجانين، فسدوا وأفسدوا أمّ الدنيا، حتى كادت أن تخرب على أيديهم.

ضحكة قصيرة سبقت رد السيد عمر:

- صدقت عندما وصفتهم بالمجانيين، لكنهم شربوا المرارة على يد أولاد أمّ الدنيا.

ضحك الجميع على تعليق السيد عمر مكرم، لكنهم عادوا للصمت عندما أكمل حديثه بجدية:

- أحب أن أضيف، نحن من أختاره، بل وألح عليه ليقبل، بالطبع وصلتكم رسالة الأمير الألفي كما وصلتني؟

هز الجميع رأسه بالموافقة، واصل نقيب الأشراف حديثه:

- لم يكن من الممكن أن نقف بجوار هذا المستبد، إن اسمه فقط يوحي بالهلع الشديد عند المصريين، مغرور، وطماع، ومتغطرس، ولا يهتم بدماء المسلمين المسفوكة على يد أعوانه المجرمين...

قاطعه الشيخ الشرقاوي:

- عفوًا سيد عمر، ماذا يجب أن نفعل؟ ندعم أفندينا رغم كل هذه الضرائب، التي أحنت ظهور المصريين وكادت أن تقصمها؟

أثارت كلمة الضرائب التفكير عند بعض ضيوف السادات، صحيح أن الشيوخ لا يدفعون أيّ نوع من الضرائب أو الجمارك، أو أيّ التزامات مالية، من التي يعاني منها الشعب، رغم ثرواتهم الطائلة، التي جمعوها من التجارة ورواتب ومكافآت، ومِنَح وهبات مادية وعينية، حقًا هم لا يعانون شظف العيش، الذي يعاني منه أغلبية الشعب، وبالطبع فكرة أن يشاركوهم هذا الشظف غير واردة، مهما كانت الظروف، لكنهم لن يصمتوا على هذه الأعباء التي يتحملها أهل البلاد.

وقف أحد التجار متحمسًا:

- يجب أن يصل لأفندينا أن الشعب لا يمكنه تحمل كل هذا العبء.

وقف بجواره تاجر آخر لا يقل حماسه عن زميله:

- نحن من يتحمل لعنات الشعب، يعتقدون بأننا نبالغ في الأسعار، رغم خسارتنا الكبيرة من عمليات السلب والنهب، إذا لم يكن قادرًا على نشر هيمنته وإقرار الأمن في أنحاء البلاد، والسيطرة عليها؛ ليذهب من حيث أتى.

خرج الكلام بثقة من فم الشيخ الشرقاوي:

- تجمّع الأهالي في الأزهر وهم ينتظرون نتائج هذا الاجتماع.

تحولت أنظار الجميع نحو السيد عمر مكرم، وبثقة كبيرة خرجت الكلمات من فمه:

- نذهب لأفندينا ونطلعه على الأمر، وهو سيستجيب بكل تأكيدٍ، ولا تنسوا أننا وقفنا بجانبه لنثبته في حكم مصر.

هكذا قرروا زيارة محمد علي باشا، لن تكون زيارة مفاجئة له، هو على عِلم تامٍّ بما يحدث في الأزهر، وبعد أقل من ساعة من انتهاء هذا الاجتماع سيكون عنده تقرير بكل حرف قِيل فيه، عيونه في كل مكان، والكثير يسعى للتقرب منه، يُقرِب من سيساعده، ويتخلص ممن سيقف في طريقه مهما كان مركزه، ولكل واحد طريقة للتخلص منه.

*****

(29)

رائحة الغضب

توسطت شمس القاهرة كبد السماء، أرسلت خناجرها الحادة، تخترق بأطرافها المدببة أجساد ضعيفة، أوهنها الجوع، وهدها المرض؛ فأضحت خيالات تمشي على الأرض، تجمعوا معًا علّهم يتمكنون من محاربة الفاقة أو مجابهة الظلم.

تقدم السيد عمر مكرم الرَّكْبَ على صهوة جواده، بجواره الشيخ السادات والشيخ الشرقاوي، وليس ببعيد عنهم الشيخ البكري، كبار شيوخ الأزهر وكبار التجار، وأعيان القاهرة خلفهم على بغالهم وحميرهم العالية في صفوف غير منتظمة، يتبعهم خلْق كثير، تمازجت تكبيرات طلاب الأزهر، مع أهازيج أولاد البلد، مع صياح الفتوات على رجالهم في عشوائية بالغة، كان صوتهم كهزيم البحر يعلو، ويهبط دون توقف، تقدم الركب ببطء شديد حتى أوقفتهم متاريس، وقف خلفها حراس بيت

أفندينا، وقفوا مدججين بأسلحتهم، متحفزين لإشهار سيوفهم في وجه الزعماء ومَن خلفهم، على سطح المنزل لمعت البنادق في يد الجنود؛ مستعدين لإطلاق النار إذا ما تخطى أحد المتاريس، أو ظهرت في الأفق أيّ محاولة للشغب، تعالت صيحات الغضب، لكنَّ إشارة من السيد عمر ألزمَت الجميع الصمت.

تلبّد الهواء بالقلق، حتى صار دخانًا كئيبًا يعلو الرؤوس، جفت الحلوق وزاغت العيون، تسرب العرَق من تحت الملابس، ورشح فوقها، فصار بقعًا واضحة تحت إبط ملابس كالحة، لا تقي من برد الشتاء، ولا قيظ يوم مثل هذا، تاريخ نائب السلطان الدموي في موطنه شاهد عليه، ولا يعرف عنه الكثير، لكن الشعور بالخطر لا يحتاج لمعرفة تاريخ.

بهدوءٍ تحدّث السيد عمر مع قائد الحرس، كانت إشارات يده واضحة وتترجم ما يقال، هناك موعد مضروب مسبقًا مع أفندينا، وهو في انتظار السادة والمشايخ، سيسمح لهم بالدخول لكن بعد أن ينصرف الجمع، هكذا يمكن أن تفهم من إشارات وتعبيرات وجْه قائد الحرس الصارمة، الذي وقف فاتحًا ما بين رجليه، قابضًا على سيفه مستعدًا لقتل كل من تسوِّل له نفسه أن يتخطى الخط الوهمي، الذي وقف خلفه الزعماء.

استدار نقيب الأشراف، وبكلمات قليلة انسحب الركب إلى الخلف، بعد تذمر القليل من الفتوات، لكن ثقتهم في زعمائهم كافية بأن تجعلها اعتراضات مكتومة، تأكد الحرس من تفرُّق الخلْق، وسمحوا لهم بالدخول على الفور، تقدم الوفد، على رأسهم السيد النقيب، وما إن رآه الباشا حتى وقف في استقباله، وعلى الفور اقتاده ليجلسه بجواره؛ تفرق المشايخ على مراتب متناثرة في بهو الصالة، في لمحة سريعة من عين خبير بطبائع البشر، تعرف الباشا على ما يدور في رأس المشايخ، يقرب له عمر مكرم، ونحن لا شيء يذكر، هذا ما استنتجه من نظراتهم، زاد الترحاب حفاوة بالنقيب، لتزداد العيون سعارًا.

كان الباشا على دراية بما أتوا من أجله، وإن تظاهر بعكس ذلك، واكتفى بالترحاب بهم وملاطفتهم، بعد فناجين القهوة تشاغل عنهم ببعض الأعمال، وبإعطاء أوامر لبعض الموجودين، أظهر التململ في جلسته، وكعادة النقيب أخذ بزمام المبادرة، تنحنح، التفت الجميع نحوه:

- قد لا تعلم فيما أتينا من أجله؟

هز الباشا رأسه نافيًا وهو يداعب لحيته في هدوءٍ، أكمل نقيب الأشراف حديثه:

- تعلم يا جناب الباشا حال البلاد والعباد جيدًا، التجار يئنُّون من الضرائب، التي أثقلت عاتقهم، ويعانون أشد المعاناة من نهب بضائعهم، وهي في طريقها إلى القاهرة، زاد الغلاء على الناس وقد ضجروا، والفلاحون لا حول لهم ولا قوة تحت سياط الملتزمين، والصعيد مجبورين على حكم المماليك وبطشهم.

توقف عن العبث بلحيته وبدأ كلامه:

- ولهذا تجمعتم في ساحة الأزهر؟

بدأ الشيخ بكري حديثه بصوت منخفضٍ وارتفع تدريجيًا:

- لا مكان لهم إلا هو، ولمن يشتكون إلا لنا بعد الله عزّ وجل؟

علق أفندينا نظره في سقف القاعة قبل أن يرد:

- تعلمون يا سادة أن الخطر محدق بنا من كل جانب، الإنجليز، المماليك، الفرنسيون، حتى الأتراك أصبحوا يمثلون خطرًا علينا جميعًا.

تعجب الشيخ السادات من ذِكْر الأتراك في حديثه؛ فسأل مندهشًا:

- وما الخطر من الأتراك يا أفندينا، وأنتم نائب للسلطان هنا؟ ومُعَيَّنٌ من قِبَلِه؟

- هذا هو مكمن الخطورة، عليكم وعليَّ من قبلكم، وعلى البلاد والعباد، هل تعتقدون أنّ السلطان والباب العالي راضٍ عمّا فعلتموه؟ بالطبع لا، سيعودون لخلعي، ويأتي والٍ آخر لينتقم منكم، تعرفون الامتيازات المقدمة لكم، لا ضرائب على تجارتكم، مرتبات، هبات، ولا تنسوا أراضي (مسموح للمشايخ)، حتى أموال الوقف لا نحاسبكم عليها، كم مجملها؟ أو أين صُرِفت؟ والٍ جديد، هل تفهمون معنى هذا؟ أتتوقعون ماذا سيفعل؟

هزت كلماته فرائص الشيوخ، فكل ما قاله صحيح، لو تدخَّل أحد في هذه الأمور؛ لفقدوا جزءًا كبيرًا من هيبتهم ودخْلهم، زلزلتهم كلمة الضرائب، يتاجرون في أشياء مختلفة هم وزملاؤهم، ولا شيء عليهم، وهل حرَّم الدين التجارة؟ وأحلَّ الضرائب والمكوس؟

لم يهتم السيد عمر مكرم بالتهديد المغلَّف بالنصح من نائب السلطان، فكل ما يهمه هو أهل المحروسة المجهَدين من غلاء الأسعار، والإتاوات التي تُجمع منهم في كل مناسبة، لم يعد مستثنًى من ذلك إلا الموت، الذي لم يُفرض عليه أيّ جباية حتى الآن.

رد نقيب الأشراف بسرعة:

- نعم نعرف معنى هذا جيدًا، سينقلونكم من هنا إلى أيّ ولاية أخرى، وسيأتي نائب جديد للسلطان، والله وحده يعلم، هل سيصلح حال البلاد على يديه، أم ستزداد سوءًا؟

- عن أيّ سوء تتحدث يا سيد عمر؟

- عن أحوال الفلاحين، لقد أصبحوا أقرب للرقيق، عن الملتزمين الذين دفعوا عن السنة القادمة مقدمًا، عن التجار الذين تنهب تجارتهم بعد أن يدفعوا ضرائبها وجماركها، وإذا سلِمت دفعوا ضرائبها مرة أخرى، عن الناس الذين لا يجدون كسرة خبز تقيم أودهم، لم نعد قادرين على تحمُّل هذا.

عقد محمد علي بين حاجبيه، اشتعلت نظراته بغضب، حاول دفنها تحت كلماته، تنفس بعمق قبل أن يتحدث:

- أشتم رائحة الغضب في كلامك يا سيد عمر، اعقدوا المجالس، وأطلقوا التحذيرات كما تشاءون، سأصغي لها بكل اهتمامٍ، ولن تمرّ مناسبة دون أن أراضيكم، لكني لن أسمح بأيّ مظاهرة شعبية، بل وعلى أيّ تحريض على التمرد، أو إثارة للاضطراب الشعبي، أيًّا كان مصدرها، من جهة أخرى، فأنا لا أخاف مطلقًا من هذه المظاهر العابثة، فإذا ما قام الشعب بالتمرد، فلا أملك له إلا السيف والانتقام.

حديثه واضحُ الآن، وتهديده جليٌّ، لن يسمح لأحد مهما كان أن يقف في وجه طموحه، حتى لو كان السلطان نفسه، لقد وصل لعرش مصر، ولن يتخلى عنه إلا إذا تخلى كتفاه عن رقبته، الطريق طويل والمتربصون كُثر، والأعداء أكثر، وظهيره الشعبي يتآكل، عليه أن يحقق نصرًا بشكل ما ليستعيد ثقة زواره، وتخضع له البلاد كما يخطط وينوي.

*****

(30)

جاشنكير

لم يتغير شيء منذ أن غادرها منذ عامين تقريبًا، حارته القديمة، بيوتها المنخفضة، مداخلها المتواضعة، أكوام القمامة في كل مكان، حشرات طنانة لا تكف عن الطيران، أطفال شبه عراة يشاركون الأكوام المنتشرة في ذبابها، تحولت وجوههم لساحات قتال لذباب يتنافس على عيونهم دون هوادة، محال بائسة، عربات يد صغيرة يدفعها رجال تآكلوا من فعل الزمان، لا شيء استطاع أن يفرض سيطرته على هذا المكان، مثلما فعل الفقر والجهل والمرض.

لو قدّر لهؤلاء القوم أن يأكلوا ذات مرة من طعام الألفي لتمردوا على حياتهم، رحب به الجيران ترحيبًا حارًا، أسئلة تهطل عليه من أفواه تفوح منها رائحة

الجوع، أين كنت؟ لماذا كل هذا التأخير؟ أين أمك وأختك؟ ألا تدري ما حدث لأبيك؟ هل قتلوه كما قتلوا مقبل؟ سمعنا أنه في المارستان، هناك من يؤكد أن حريمك بيعوا في أحد بيوت اليسرجيات، لماذا أنت صامت هكذا؟ هل أكلت القطة لسانك؟

طاردته العيون وطاردته الأسئلة، عاد للحارة ليبحث عن إجابات ألغاز حيّرته، وأرّقته لشهور طوال، لم يشفِ المكان غليله، فرّ منهم هائمًا على وجهه، يبحث عمّن فقدهم، قتلوا من سلّمه لهم، لن يكون من الصعب عليهم أن يؤكدوا جنون أبيه، ولا أن يتاجروا في باقي عائلته، لماذا لا يكون قد جنّ أبوه حقًا؟ لم يتحمل أن تختفي عائلته كلّها مرة واحدة ففقد عقله.

سيزور أباه عمّا قريب، لكن الآن عليه أن يستعد لمقابلة ولي النعم، عُكرش رتب لكل شيء، سيلتقي به بعد سويعات قليلة بالقرب من القلعة، ما زال أمامه متسع من الوقت ليشتري ملابس جديدة، سيشتري الخف الأحمر الفاقع، الذي حلم طوال حياته بأن يقتنيه، نعم وتلك العباءة البنية كما تمنى أن تلمس جلده ولو لساعة من الزمان، سيبدو مثل الأعيان في هذه الملابس، وعدوه بمكافأة كبيرة بعد أن ينهي مهمته، وها هي قد

انتهت، ربما اقتطع له قطعة أرض كبيرة، سيبني هناك منزلاً ضخمًا، لن يكف عن البحث عن عائلته، سيدفع ثمنهنَ مهما كلفه الأمر، المال سيكون موجودًا، وهنَ لا يُقدَرن بمال.

لم يتعرف عليه غُكرش في البداية، هو أيضًا تعجب عندما رآه في مظهره الجديد، زالت الغباوة من عينيه، الجديَة تملأ محياه، حتى خطواته تبدل إيقاعها، تلعثم عندما أراد أن يناديه، خرج اسمه مقطّعًا «غُ كر ش»، ابتسامة باهتة مرت على شفتي الرجُل، سرعان ما استبدل بها نظرة صارمة، وصوت معدني حاد وهو يحدِّثه:

- لا وجود لغُكرش بعد الآن.

- ما اسمك إذًا؟

- في عملنا الأسماء لا تهم.

- لماذا جندتموني في تلك المهمة، وكنت قادرًا على أدائها وحدك؟

ربت على كتفه بقوة قبل أن يجيب على سؤاله:

- أجيد التنكّر، أتحدث عدة لغات، أتقن كل اللهجات المصرية، إلا أنّه لا علاقة لي بالطبخ.

يبدو أنّه على عِلم بكل شيء، قد يعلم أخبارًا عن عائلته، سأله في حماس:

- أين عائلتي؟

- في الواقع لا علم لي بمكانهنّ الآن، آخر ما أعرفه عنهنّ أنهنّ كنّ في قصر صالح قوش بك، ماذا حدث لهنّ؟ لا أعرف، ربما عاقبوهنّ على جريمة السرقة، التي شاركن فيها جارك، ربما باعوهنّ في أيّ سوق، أو ربما ما زلن في القصر هناك كما هنّ، أو في قصر آخر من قصور البشوات، حان الوقت، وحذاري أن تسأل عنهنّ، فقط انساهن، تذكّر شيئًا واحدًا أنك مقبل على حياة جديدة، حياة جديدة لها قواعد مختلفة، تقبّلها كما هي، ولن تندم.

- كيف كانت تصلك الأخبار وترسلها؟

- لا تهتم بمثل هذه الأشياء.

لم يفهم كثيرًا من كلام العُكرش السابق، نفْسه تنزف، روحه تتمزق، عِرضه مستباح من قوم خَدَمَهم، وعِرْض

حياته للخطر من أجلهم، وببساطة يطلب منه أن يقبل حياته الجديدة، ويعتاد عليها، سحبه من طرف عباءته البنية ليتحرك، مشيا في صمت، قبل بوابة القلعة نظر نحوه، بصوته الحاد عاد ليقدم له آخر نصائحه:

- هذه يا صديقي أرض المؤامرات، وهي لا تفصح عن نفسها أبدًا، تأتي متخفية، تطبق براثنها في صمت على الضحية حتى تزهق أنفاسها، لا تصادق، لا تهادن، لا تسامح، لا تصدق فيها أحدًا، ولا تظهر تكذيبك، حتى كلمة صديق التي قلتها لك هذه لا تصدقها، لا تُفْشِ سِرَّك أبدًا، حاول أن تكسب مما حولك، ولا تُفِدْ أحدًا مهما كان، لا تتحدث كثيرًا، لا تسأل مطلقًا، أنت أعمى رغم بصرك، أبكم مع وجود لسانك، أصم ولو كبرت أذناك، خذ كلامي هذا بمحمل الجد والشك، جرب أن تخالفه، وسترى ما لا يحمد عواقبه.

انتهى من نصائحه أو تعليماته قبل أن يدخلا على الباشا، صمت، ترقب، توجس، خوف، لحظات ما قبل الموت، ألم يقل له حياة جديدة؟ عليه أن يدفن حياته الأولى، قبل أن يدخل في برزخ هذه الدنيا الجديدة، وأخيرًا البعث، سمح لهما بالمثول أمام ولي النعم، وقدمه مرافقه المجهول المعروف سابقًا لصاحب العرش،

هزّ رأسه مستحسنًا وجوده، أشار لهما بالانصراف، بعد أن سلّمه ورقة صغيرة، ففتحها بعد أن خرجا، برقت عينا أحمد وسأل في لهفةٍ:

- لا بد أنّ ذلك عقد الأرض التي اقتطعها لي إسكندر الزمان[11] ، أين هي بالله عليك؟

نظر بدهشة عارمة له، هل جنّ هذا الرجُل؟ ألم يسمع عن بخل ولي النعم؟ يبدو أنّه لم يتعلم شيئًا من نصائحه. فَرَدَ يَدَهُ وَدَسَّ الورقة فيها، وابتسامة سخرية تغزو وجهه همس له:

- مبروك، عينك الباشا جاشنكير[12] ، وأوقف لك جامكية[13] قدرها خمسون بارًا.

جاشنكير! أيّ مكافأة هذه؟ وأيّ إسكندر ذاك؟ وأيّ زمان هذا؟ سيواجه الموت كل يوم مرات ومرات كلما جاع أو عطش هذا الملعون، يا له من خبيث ماكر يستحق الموت كل ساعة، أدرك الذي لا اسم له ما يدور في عقل أحمد، وضع يده على صدره، ونظر بعمق في عينيه، وهو يهمس في مودة:

11- من ألقاب السلطان.

12- متذوق مأكل ومشرب السلطان أو الأمير للتأكد من خلوه من السم.

13- أجر أو منحة شهرية، كانت تُعطى من غلة الوقف.

- انغمِس في حياتك، ولا تراقبها أو تتأملها، هي ستقودك حيث تشاء، تمتع بها وكفى، ولا تبحث عن وطن فالأوطان مغرية، بهية، تسهل سرقتها واحتلالها، عِش في منفى؛ فالمنافي لا يعرف قيمتها سوى المنبوذين والمركونين على زوايا الحياة الباردة، لنا لقاء آخر، ستجدني بجانبك عندما تحتاجني.

أغلق يديه على أمر تعيينه، وربت عليها، وابتسامته الودودة ما زالت على شفتيه، أشار له بيده إلى طريق المطبخ، وسار لا يلتفت خلفه حتى اختفى عن ناظريه.

*****

(31)

نيران الرغبة

جلس صاحب الستة والثلاثين ربيعًا منتفخ الأوداج سعيدًا بما وصل إليه، اليوم يضع قدمه على أول الطريق الصحيح، الذي حلم به طوال حياته البائسة، فسعادته أيامها تُعد على أصابع اليد الواحدة، أهمها على الإطلاق هو اليوم، توهم ذات يوم أنه امتلك العالم يوم زفافه على أمينة هانم.

ذهب إلى حجرتها فوجدها في انتظاره، تزينت كأميرة، ولِمَ لا وقد أصبح زوجها والي مصر دون منافس، هبّت عند دخوله وانحنت أمامه في حركة مسرحية، تقدَّم نحوها، وأمسك بيديها، ولثمها بقُبلة حارة، تلك اليد التي طالما وهبت له الكثير من ثروتها، اليوم شعرت بأن موافقتها على الزواج منه قرارٌ موفَّقٌ .

ساعدته ليتخفف من ملابسه، وجلست بجواره، نظر في عينيها اللوزيتين وتبسم، تبسّمت هي الأخرى واحتضنت يديه، وقرّبتها من فمها

الكريزي، شعر بدفء أنفاسها، وهي تطبع قُبلة حارة في باطن يده، ضمَها إلى صدره، وتذكَّر يوم أن رشحه لها «إسماعيل الشوربجي» وكيف ترددت في قبول تلك الزيجة! ولها كل الحق في التردد، نظر نحوها بعد أن وضع يده حول خصرها وسألها في تودد:

- ألا زلتِ تشعرين بالندم على زواجكِ مني؟

حاولت أن تتخلص من ذراعيه، اللتان أحاطتا وسطها، لكنهما فشلتا في ذلك، فرَدّتْ عليه في رِقَّةٍ مبالغة:

- من أخبرك أنني ندمتُ ذات يوم على الارتباط بك؟

- سيدة في جمالك، وغِناك توافق على الزواج من بائع تبغ، ألا يدعو هذا للعجب؟

- عندما يرشحك لي حاكم البلاد؛ فلا يمكن أن أرفض.

تنهد والي مصر عندما تذكَّر مواقف الشوربجي إسماعيل، هذا الرجُل الذي احتضنه بعد وفاة عمه «طوسون» ولم يبقَ له من عائلته إلا هو؛ ليتكفل به بعد أن أصبح لطيمًا في سن الرابعة عشر، قست الدنيا كثيرًا عليه، ولكنها تبشره اليوم بأنّ صفحة البؤس قد طُويت من حياته، وها هو في انتظار مجلدات من السعادة.

خفف حصاره عن خصرها، فارتمت في أحضانه، وهي تخلل يدها الناعمة في لحيته، تبسَم لذلك فهو يحبّ منها مثل تلك المداعبات، ولا

يسمح لأحد أبدًا غيرها من الاقتراب من لحيته، مرّرت يدها على شفتيه، وسألته في خبثٍ ودلالٍ:

- لو كنتَ بقيتَ نائبًا لكتيبة الألبان؛ هل كنتَ ستصل لما وصلتَ إليه؟

عض أناملها برفق، فانتزعتها من بين أسنانه، وهو يجيبها:

- هل تعلمين أن أكثر ما يثير حنقي هو كلمة نائب؟ حتى لو كنت نائبًا للسلطان، يومًا ما ستكون مصر خالصة لي ولأولادنا من بعدي، لكن حتمًا وبالتأكيد كنتُ سأصل إلى مرادي.

- كيف؟

- الأمر لا يحتاج أن أكون فقط قائدًا لجنود، لكنه يحتاج لهذين.

وأشار إلى رأسه ولسانه.

- يبدو أنك تعلمت الكثير.

- بالطبع علّمتْني الدنيا دروسًا، أولها: ستقسو علينا الحياة، لا لشيء، وإنما لتنقينا وتعُدنا لما هو مقبل من أمور، فكلما ضيّقتْ علينا الخناق هناك ثغرة لا يراها أحد سوى من استيقظ ذهنه، وعلَت همّته، تعلّمتُ أن الحياة لن تتوقف إذا ما مات الأعزاء، لكنها ستتوقف عندما نسلم أنفسنا لليأس أو للهوان، فإن كانت المنيّة قد وافت أشقائي وشقيقاتي الستة

عشر، وتوفيَ والدي وبعده أمي، ثم عمي الذي آواني، لكن الحياة لم تتوقف في بيت الشوربجي إسماعيل، فصديق العم قد يفعل ما لا يستطيع الوالد نفسه أن يفعله.

تنهدت أمينة هانم ونظرت في عيني زوجها العميقتين، انحدرت يدها برقة محاولة مسح ذكريات حزينة لا يستطيع مخلوق أن يزيلها من عقله، قبّلته بين عينيه قبل أن تردّ عليه:

- بالتأكيد قدّم لكَ الكثير، ساندكَ عندما انضممتَ لسلك الجندية، ولم يكتفِ بذلك لكنه عيّنكَ نائبًا لابنه على الكتيبة الألبانية، التي أتت لمصر مع الجيش العثماني؛ لتسلم الولاية العثمانية من يد الفرنساويين.

تماسك نفسه، ثم ابتسم بمكرٍ:

- لم يكن اختياره لي مجاملة.

- بالطبع لم تكن مجاملة، فلولا شجاعتكَ، وإقدامكَ لما أقدم على ذلك.

- يسعدني علمكِ بذلك.

- لم تكن فقط شجاعتكَ هي كل مؤهلاتكَ، لا تنكر مساعدتي لكَ في ذلك.

ضحك محاولاً تغيير دفة الحديث، فوكزته بخفةٍ في صدره، وهي تتظاهر بالغضب:

- أتسخر مني؟

- لا بالعكس لكنكِ تنكرين ذكائي.

لم تستطع أمينة هانم أن تغفل ملحوظته، فهو وبشهادة كل من تعامل معه متَّقِد الذكاء، ذكاء يخيف من يقترب منه، ذكاء يتحول أحيانًا إلى خبثٍ، ومرّات لدهاءٍ، أكثر من مرة جنّب كتيبته الاعتداء على المصريين، كما كانت تفعل باقي الكتائب العثمانية، أغضب هذا الوالي، ولكنه كسب رضا ومحبّة شيوخ الأزهر، كم من مرة أبدت اعتراضها على عدم إطاعته لأوامر الوالي في المراسلات بينهما، لكنه كان محقًا، هو الآن والي مصر وملكها، بينما باقي منافسيه إما أموات أو في طيّ النسيان، لا يذكرهم أحد.

اقتربت منه أكثر وألصقت صدرها الغض بذراعه، شعر بطراوة جسدها الأبيض المرمري، فدنا منها أكثر محاولاً إشعال جذوة رغبته، لكنها ابتعدت عنه قليلاً، وهي تداعب شفته السفلى بسبابتها، وأردفت في دلالٍ:

- الآن أنا ملكة مصر، أليس كذلك يا مهجة الروح؟

- لا حبيبَتي، أنتِ ملكة قلبي وسلطانة على عرشه فقط .

ظهر عليها الضيق، فابتعدت عنه، وراحت لطرف السرير، لمح تلك النظرة، التي يعرفها جيدًا عندما تضيّق ما بين حاجبيها، تشعر وقتها

بأنّ السماء ستلقي بجامّ غضبها على من غضبت عليه صاحبة الحاجبين المقرونين، ضحك من كل قلبه وهو يحاول جذبها نحوه، وهي تقاومه، فاعتدل في جلسته وأمسك يديها برفقٍ، وتبسّم في وجهها محاولاً وأد غضبها في مهده:

- عزيزتي، لم أمتلك مصر بعد.

ردّت عليه في عصبيةٍ:

- كيف ذلك وأنت الآن ملِكها، وأنت باشا بثلاثة ذيول؟!

- قد تتصوّرين أنني الحاكم، لكني أعرف أنّ خارج هذه الغرفة تنتظرني المصاعب، هل تعتقدين أن حكمي هنا سيطول؟

- ولِمَ لا؟

اقترب منها أكثر، ووضع ذراعه فوق كتفها، وضمها لصدره، وهو يجيب سؤالها:

- أنتِ واهمة يا زوجتي الحبيبة، قريبًا سيخلعني السلطان مرة أخرى من منصبي هذا، لم أصل إلى هذا عن طريقه، بالتأكيد أغضبه ذلك، حاول إزاحتي عن حُكم مصر، وتمكّنت من كسب هذه الجولة أيضًا، هل ترضى الحاشية حوله بما حدث؟

- وماذا عن ابني الذي هناك؟

- سيعود، ولكل شيء ثمن.

- يا ويلي، وماذا أنتَ فاعلٌ؟

مسح على شعرها مطمْئنًا:

- سيعود قريبًا، تجريدة لبلاد الحجاز هي ثمن عودة ابننا.

- ومتى ستذهب هذه التجريدة؟

- الأمر يحتاج إلى ترتيب، الألبان لا يريدون الخروج للحرب، ويتركون أمراء المماليك هنا، وأنا أؤيدهم في ذلك ربما استضعفوني في موقف مثل هذا وانتزعوا الحكم مني، وأغاروا على بيوت الألبان ونهبوها.

- ليذهب الأمراء مع التجريدة.

- لا آمن وجودهم هناك أيضًا، إنهم أولاد حرام، لربما كانوا السبب الرئيس لفشل المهمة.

- ما الحل إذًا؟

حاول أن يبث الثقة في نفسها دون أن يعطيها ردًا شافيًا:

- لكل وقت أذان كما يقول أهل مصر، دعينا من ذلك الآن، ألا تظنين أننا يجب أن نحتفل بليلتنا هذه؟

- نحتفل! وماذا عن باقي مشاكلك؟

- من تقصدين؟

- هؤلاء الذين يشاركونك الحكم.

- نعم، فهمتك،هؤلاء المعمَّمين، لا تقلقي يا عزيزتي كلهم سينطوون تحت جناحي، وإلا عليهم تحمُّل ما سيحدث لهم.

تعجَّبتْ من كلامه، هم من أتوا به للحُكم، وهي على يقين بأنهم قادرون على سحْب البساط من تحت قدميه، نظرت في عينيه متسائلة، فهِمَ قصدها؛ اعتدل في جلسته، وهو ينظر نحو سقف الغرفة محاولاً إخفاء نواياه، تنهَّد وانتظر قليلاً، ثم عاود حديثه:

- لا تعتقدي يا عزيزتي أنهم ملائكة، هم مجرد فقاعات بشر، لهم طلبات ورغبات، وعليهم التزامات، يعيشون في ترَفٍ، ولن يتحملوا شظف العيش، لكل شيء ثمن ومقابل، إن أرادوا البقاء في عزّهم؛ عليهم إطاعتي، وإن رغبوا في الاستمرار بالتمتع بمضاجعة محاظيهم وغلمانهم؛ عليهم إظهار الولاء والطاعة، وإن أبوا؛ فليتحملوا قسوة الحياة، التي يعاني منها الشعب الذين ينتمون إليه.

- وماذا عن أمراء المماليك؟ هم حجر العثرة لعودة وليدي؟

أثار ذِكْر المماليك قلقًا حقيقيًا في نفسه، نعم تخلَّص من كبارهم تقريبًا، ودون مجهود يُذكر، مات البرديسي بمرضه، ومن ورائه الألفي،

لكنه لا يأمن بواقيهم، عاد مرة أخرى للنظر لسقف الغرفة، نظرت هي الأخرى نحوه، لترى إلى ما ينظر زوجها، التفت إليها ثم تنهد ومال فمه ناحية اليمين قليلاً، قبل أن يبوح بسرِّه:

- لا حل إلا التخلص منهم بصورة نهائية، نطاردهم في الصعيد، ومن سيطلب الصلح منهم؛ لا مانع على أن يقيموا هنا تحت عينيَّ في المحروسة، لن أسمح بتجزئة مصر بيني وبينهم، لكن في يوم ما، لا بد من القضاء عليهم قضاءً مبرمًا بصورة أو بأخرى.

داعب خصلة من شعرها، اقترب منها أكثر، همس في أذنها:

- قريبًا ستسمعين وترين ما يسرُّ خاطركِ.

ضمَّها إلى صدره، وقبَّل وجنتيها، قامت في خفة، وأطفأت المصباح، وعادت للسرير مسرعة، سبحا معًا في بحيرة من العشق الدافئ، دقائق وابتلعهما بحر من نيران الرغبة.

25 فبراير 2016

30 يونيو 2018

"تمت"